صورة "الأب والأم" في شعر محمود درويش

Image of the "father and mother" in the poetry of Mahmoud Darwish

د . عبد الرحيم حمدان حمدان

كلية فلسطين التقنية – ديرالبلح – فلسطين

ملخص: تطمح هذه الدراسة إلى مقاربة عنصر مهم من العناصر التي شكلت عالم الشاعر محمود درويش الأسري، والذي كان له تأثير بارز في تجربته الشعرية ورؤيته الإنسانية، وهو صورة "الأب والأم"، التي حرص الشاعر على استحضارها في عدد من نصوصه الأدبية، فـ"الأب والأم" كلاهما يرمزان عنده للوطن والأرض، وهما أيضاً من الرموز الإنسانية التي تمد الحياة بعناصر الديمومة والبقاء.

وتسعى الدراسة إلى استخدام المنهج التحليلي الفني الذي يُعنَى بالكشف عن أنواع صورة"الأب" و"الأم" في خطاب محمود درويش الشعري، وتطورها، والوقوف على أهم ملامح هذه الصورة وعناصرها وسماتها الإنسانية والفنية، ومعرفة مدى فاعليتها في بناء سيرة الشاعر الذاتية وتشكيلها، مع الأخذ في الاعتبار أهمية الكشف عن التقنيات الأسلوبية التي وظفها المبدع في نصه الشعري لرسم أبعاد تلك الصورة وملامحها.

Abstract: This study aims to investigate the image of "the father and the mother" which is considered an important element in Mahmoud Darwish's family life. The image of "the father and the mother" had a clear impact on Darwish's poetic experience and human vision. In addition, Darwish used to recall this image in several poems because the father and the mother symbolize home and land. The father and the mother also introduce human symbols which provide life with elements of immortality and existence.

The study used the descriptive analytical method to reveal the image of the father and the mother in Darwish's poetic discourse. Moreover, it explains the image's sections, development,

characteristics, artistic and human elements, and its effects on building Darwish's autobiography, while considering revealing the techniques the poet used to draw the dimensions of the image.

مقدمة

تشكل الأسرة مكوناً مهماً من المكونات الأساسية التي يوظفها الشاعر رموزاً وإيحاءات في نصوصه الشعرية، وتقدم تجربة الشاعر محمود درويش مثالاً واضحاً وثرياً لمعنى الأسرة، فمفهومها عنده لا يعني الأسرة العادية المألوفة، وإنما هو الانتماء والجذور التي تمده بالصمود والتحدي والإصرار.

من يتأمل تجربة محمود درويش الشعرية، يجدها تزخر بعدد وافر من الشخصيات الأسرية منها: شخصية الأب والجد، إلى جانب شخصية الأم، والأخت، والأخوة، وقد تداخلت هذه الشخصيات مع بعضها بعضاً وتشابكت في علاقات متنوعة، بيد أنه يظل لكل شخصية منها ملامح وسمات وأفعال ضمن بنية النص الشعري.

ولما كانت هذه الشخصيات الأسرية أثيرة لدى الشاعر، لصيقة بقلبه ووجدانه، فإنه ظل يُكِّنُ لها كثيراً من الحب والحنان؛ ذلك أن ما ألحقته النكبة بهذه الشخصيات من آلام وشقاء، وما فرضته عليهم من عذابات كثيرة، تركت جرحاً عميقاً في نفسه، ظل مفتوحاً وطرياً حتى اللحظة الأخيرة؛ لذا تراه الذات المتلقية يترجم هذه الأحاسيس والعواطف، ويجسد حبه ووفاءه لها بإهداء أحد دواوينه وهو" لماذا تركت الحصان وحيداً" إلى ذكراهم، إذ يقول:" إلى ذكرى الغائبين: جدي: حسين، جدتي: آمنة، وأبي: سليم، وإلى الحاضرة: حورية، أمي"([1]).

إن القراءة الفاحصة لهذه الشخصيات، تكشف أن شخصيتي "الأب" و"الأم" هما من أكثر الشخصيات حضوراً في فضاء النص الشعري لدى الشاعر محمود درويش بصورها ودلالاتها المتنوعة؛ بوصفهما من أبرز المؤثرات التي شكلت عالمه الأسري، وكان لهما دور فاعل في تشكيل شخصيته؛ لذا ستعمد هذه الدراسة إلى مقاربة صورة كل من "الأب" و"الأم"، وتحليل ملامحها وعناصرها، والكشف عن علاقتها بشخصية الشاعر، متخذة من المنهج التحليلي وسيلة للوقوف على حدودها ومكوناتها، ورصد أنواعها وملامحها، والإبانة عن التقانات الفنية التي استخدمها الشاعر في رسم ملامح هذه الصورة وأبعادها وأطرها الأساسية من:

توظيف تراثي، وبنية دلالية وسردية وإيقاعية، وتشكيلات صوتية، وصور فنية ورموز ومفارقة تصويرية وسخرية مرة وغيرها.

أولا: صورة" الأب" في شعر محمود درويش

يمثل"الأب" في التجربة الإبداعية عنصراً مهماً من العناصر الأساسية التي يوظفها المبدع وفق رؤيته الإنسانية، وأفكاره الشعرية، وقد شغلت صورة "الأب" في تجربة محمود درويش الشعرية مساحة واسعة، إذ تعددت ملامح هذه الصورة، وتنوعت أبعادها وتوزعت ما بين صور حقيقية، وأخرى ذات أبعاد رمزية. وسيتم تقسيم هذه الصورة أربعة أقسام هي على النحو الآتي: صورة الأب الفلاح، وصورة الأب اللاجئ، وصورة الأب المقاوم، وصورة الأب التراث.

أ . صورة الأب الفلاح:

من يتأمل سيرة الشاعر محمود درويش الذاتية، يتبين له أنه نشأ نشأة ريفية، فقد ولد في قرية "البروة"، وهي قرية صغيرة في الجليل الفلسطيني تقع شرقي عكا، تميزت بأرضها الخصبة، ومزروعاتها من الزيتون والحبوب والخضروات، وهكذا نشأ الشاعر نشأة ريفية من عائلة معنية بالأرض بالدرجة الأولى([2]).

ولا شك أن هذه النشأة الريفية قد انعكست في كثير من قصائده الشعرية، وتجلت في رسم ملامح صورة أبيه "سليم"، فالأب فلاح فلسطيني، كان يملك بعض الأراضي في قرية "البروة" التي دمرها المغتصبون الصهاينة سنة 1948م؛ فاضطرت أسرته إلى اللجوء إلى جنوب لبنان، بيد أنها استطاعت العودة إلى الوطن بعد سنة من اللجوء؛ لتقيم في قرية" الجديدة"، وهي إحدى القرى العربية في الأرض المحتلة، وما زالت تقيم بها حتى اليوم.

إن النظرة المتفحصة إلى ملامح صورة "الأب" كما رسمها الشاعر، تسفر عن أن الأب ينتمي إلى أسرة ريفية حيث كان يعمل بالزراعة والرعي، وهذه النشأة القروية جعلته يرتبط بالأرض / الوطن ارتباطاً وثيقاً ويتعلق بها،ويتمسك بذراتها، وقد ارتبطت مفردات هذه الصورة بالأرض وعناصرها من تراب وأشجار ومحراث، يقول في قصيدة"بطاقة هوية"[(3)]:

أبي.... من أسرة المحراث

لا من سادة نُجُبِ
وجدي كان فلاحاً
بلا حسب... ولا نسبِ!

تجلت في هذا المقطع القصير ملامح أسرة المحراث التي ينتمي إليها "الأب" و"الجد"، وما يتولد عنها من التحام تام بين الفلاح والأرض، فالشاعر يعترف أن أباه وجده من أسرة ريفية قروية، عرف أبناؤها الفلاحة في الأرض، وعايشوا المحراث، وأنهما لا يهتمان بنقاوة النسب والحسب؛ لأنها قيم بالية؛ فقيمة الإنسان تكمن في ارتباطه بأرضه والتعلق بترابها، فالتمسك بالأرض عند درويش موقف إنساني، وموقف وطني غير معزول عن الامتداد القومي، والشاعر بهذا التوجه يرمي إلى استحضار فكرة الانتماء للأرض من خلال الانتماء لأسرة المحراث، فالمحراث– وهو أحد أدوات خدمة الأرض وشقها، والفلاح هو الذي يستخدم تلك الأداة – ليس سوى حالة انتماء تنم على ذهنية واضحة ثرية، فالارتباط بين الفلاح والأرض ارتباط عميق الصلة لا يعرفه إلا هو ذات الفلاح[4].

عمد الشاعر إلى امتياح مادة صوره الشعرية من تجربته الذاتية، ومن تجارب أسرته البسيطة من حوله، من صورة أبيه وهو يعمل في أرضه، ومن تمسكه بقطعة أرضه الصغيرة؛ لأنها رمز لفلسطين المغتصبة، ومن هنا جاءت مقولته المعروفة"تعلمتُ معنى التمسك بالأرض" التي شرّد منها مع عائلته إلى لبنان سنة 1948[5].

إن قراءة متمعنة لأشعار محمود درويش، تجدها تلح على تأكيد هويته التاريخية في أرضه وانتمائه إليها، وذلك من خلال استحضار صورة "الأب" الذي سلب المحتلون كروم أجداده، واغتصبوا أرضه التي كان يفلحها أبوه، "إن فكرة الانتماء إلى الأرض التاريخية قد تساعد الأب على التخلص من دفع حريته ثمناً لهوية الانتماء إلى هنا أو هناك في صراع الهويات"[6]، يقول في قصيدة" تدابير شعرية"[7]:

وأبي تحت، يحمل زيتونة
عمرها ألف عام،
فلا هي شرقيةٌ
ولا هي غربيةٌ
ربما يستريح من الفاتحين

ويحنو عليَّ قليلاً، ويجمع لي سوسنا.

يدرك المتلقي أن في هذه الأسطر تعبيراً صادقاً وأميناً عن ارتباط الأب بأرض فلسطين، وانتمائه الراسخ إليها، مستثمراً في هذا التعبير ما تزخر به الدوال من طاقات إيحائية ثرة، فدال "الزيتون" يوحي بقوة هذا الانتماء وأصالته؛ فشجرة الزيتون عريقة، ولها دلالات تاريخية ودينية.

وقد تمكن الشاعر من توظيف التراث الإسلامي المتمثل في الاقتباس المباشر من الخطاب القرآني، إذ يتناص قوله" فلا هي شرقية ولا هي غربية" مع قوله تعالي:﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ...﴾[8](النور:35).

إن دلالة شجرة "الزيتون" التي وردت في نص الشاعر تتوافق مع دلالة شجرة "الزيتون" في الخطاب القرآني، فكلتاهما لها جذور راسخة في فلسطين قبل ميلاد الزمان، وكلتاهما نبتت في الأرض المباركة "فلسطين"، وبذلك غدت تلك الشجرة من الدوال التي استحالت إلى الرمز، فدال "الزيتونة" رمز للوطن وللأرض ولفلسطين، وهي بوابة من بواباتها، وبذلك أخضع المبدع التناص لرؤيته، إذ جعل منه جزءاً أساسياً من فضاء النص، ومن رؤيته في آن واحد؛ الأمر الذي أضفى على خطابه الشعري لوناً من القداسة والمصداقية.

وفي لوحة أخرى تكتشف الذات المتلقية أن سمات أرض فلسطين وطبيعتها، قد انعكست في ملامح شخصية "الأب" وصورته، فهو يتسم بالعطاء المتواصل، والصبر والتعاطف والتفاني والتحدي، فالأب– بوصفه رب عائلة كبيرة – هو الذي يتحمل أعباءها، ويسعى جاهداً في سبيل أن يوفر لأبنائها حياة حرة كريمة، وهو يصارع قوى الشر والخبث في سبيل الظفر بلقمة يطعم بها أولاده، وهو معطاء كالأرض، يقول في قصيدة" ثلاث صور"[9]:

كان أبي
كعهده، محملاً متاعبا
يطارد الرغيف أينما مضى ..
لأجله .. يصارع الثعالبا
ويصنع الأطفال .. والتراب .. والكواكبا ..

تبدت في هذا المقطع صورة "الأب" الفلاح البسيط الذي ينجب الأطفال، ويصنعهم على عينيه في سبيل الوطن، ويتعهد الأرض ويرعاها في سبيل الأطفال، وبتعبه وشقائه في الأرض يصنع لهم نوراً يعينهم على الاستمرار في التمسك بها. وقد توسل الشاعر للتعبير عن رؤيته وأفكاره اللغة البسيطة الموحية، والأسلوب السردي المتدفق، والانزياحات البلاغية المبنية على عنصر التشبيه بما فيه من طرافة وجدة تثير القارئ منذ الوهلة الأولى، فالمشبه والمشبه به يمتزجان، ويختفي المشبه نتيجة لذلك، ويبقى المشبه به فقط، والغرض من مثل هذه الصور، هو التنويع التصويري من أجل مزيد من الإثراء[10].

حاول الشاعر أن يقيم علاقة جدلية بين الأرض التي تمنح الحياة والأب الذي ارتبطت روحه بأرضه، فرسم في مشهد موح صورة "الأب الفلاح" المرتبط بأرضه ارتباطاً عميقاً، فيقول في قصيدة" أبي" متحدثاً عن أبيه(11):

أشعلَ البرقُ أوديهْ
كان فيها أبي
يربي الحجارا
من قديم.. ويخلق الأشجارا!
جلده يندف الندى
يده تورق الشجرْ.

رسم الشاعر في هذا المشهد صورة متكاملة لملامح شخصية "الأب" الفلسطينيّ الذي ظلّ مرتبطاً بأرضه ارتباط تماهٍ واندغام، وقد استمدت شخصيته أبعادها من تراث هذه الأرض العريق، فبدا "الأب" الفلاح في صورة "كنعان" الأب القديم، فهو متصل بهذه الأرض منذ القدم، وما زال ينمّي حجارتها المقدسة، ويغرس أشجارها في السهول والأودية، ويرويها بعرقه الطاهر، فتورق وتعطي ثماراً طيبة مستمداً هذه اللوحات الموحية من الواقع الفلسطيني المعيش في ظل التشرد واللجوء والنفي.

وفي مشهد آخر يصور الشاعر قسمات "الأب" وسماتها من منظوره الخاص، في مرحلة من مراحل فترات شبابه، عندما شرع يبحث عن تحقيق الذات من خلال رفض الواقع المعيش والتمرد عليه، والتعبير عن الإحساس بالقهر والمعاناة، والرفض، يقول في قصيدة"أبي" (12):

وأبي قال مرة
حين صلى على حجرْ:
غُض طرفاً عن القمر
واحذر البحر.. والسفر!

القارئ المتفحص لهذه الأسطر، يتبين له أن الأب ينهى ابنه عن التفكير في السفر عن هذه الأرض؛ خوفاً من أن يقوده الرحيل إلى البحر حيث قسوة الضياع ومرارة الغربة، والإخفاق في العودة إلى الوطن مرة ثانية؛ خوفاً، فالسفر لا يكون إلا للأرض، والاندماج في أحشائها عبر تحقيق وحدة ما بين الذات والوطن، وهو يستمدّ إصراره على بقاء الابن في الوطن من إيمانه القوي بالله والتسليم بقضائه، ومن علاقته بصخور أرضه القوية الثابتة.

توسل الشاعر في هذا المقطع اللغة المحكية البسيطة وسيلة للتعبير عن تجربته الشعرية ورؤيته الإنسانية مستخدماً في ذلك لغة الرمز البسيطة، "فالقمر" يرمز للخير والعطاء والجمال العالي والسحر، و"السفر" يرمز الغربة والضياع، والبحر يرمز الخوف والضياع والموت.

وعلى الرغم من أنّ الابن ينظر إلى "الأب" من زاوية المعارضة والرفض، فإنّه يعجب ببعض معالم صورته التي منها: إصراره على البقاء في الأرض، ورفض مغادرتها، فالفلسطيني يعيش ويكابد ويتحمل مرارة الحياة من أجل الوصول إلى هدف واحد هو الحصول على قبر في تراب الوطن، يقول في القصيدة "ذاتها"(13):

وأبي قال مرة:
الذي ما له وطن
ما له في الثرى ضريح
.. ونهاني عن السفر!

ينهى الأب في هذه الأسطر ابنه عن الرحيل؛ لأن البقاء في الوطن والتشبث بالأرض هو مطلب كل فلسطيني، و لأن السفر من وجهة نظره اقتلاع للإنسان من أرض الآباء والأجداد، فالقبر لدى درويش يساوي الوطن الأرض، إنها رؤية واقعية لفلاح علمته الأرض أن يتمسك بترابها، وأن ينظر إلى القبر على أنه كيان مادي راسخ فيها، لا يمكن زحزحته

عنها، مستلهماً من موت"الأب" صفة الدوام والمقاومة، والأصالة المتجذرة في الأرض الوطن.

وعلى الرغم من أن صورة "الأب" تجلت فيها بعض ملامح السطوة والتسلط وفرض الرأي على الابن؛ فإنها في الوقت ذاته صورة تستدر تعاطف الذات المتلقية، وتحملها على الموافقة على موقف الأب ورؤيته؛ بقصد تأييده ومشاركته وجهة نظره.

والأب"سليم" عاشق لأرضه، يحبها حباً جماً، إنه لم يتخل عنها، حتى عندما طرده المحتلون منها، وهو مالكها الحقيقي، فضّل أن يكون قريباً منها، فتحول إلى عامل في أرضه التي اغتصبها أعداؤه؛ ليظل ملتصقاً بترابها، يشم رائحتها، وتختلط حبات عرقه بأديمها، يقول عن علاقة أبيه بالأرض في قصيدة رثى فيها أباه "سليم" بعنوان" ربِّ الأيائل يا أبي .. ربِّها"(14):

وهو الحديقة في مهابتها البسيطة، لا يحدثني عن التاريخ في
أيامه: كنا هنا قبل الزمان وههنا نبقى، فتخضر الحقولُ
ربِّ الأيائل .. ربّها في ساحة الدار الكبيرة يا أبي!
فيغض عني الطرف. يصلح غصن دالية: يقدم للحصان شعيرَهُ
والماءَ. يعرفه على مَهَل، يلاطفه ويهمس: يا أصيلُ.
يتناول النعنان من أمي يدخن تبغه، يحصي ثريات العنبْ
ويقول لي:إهدأْ! فأغفو فوق ركبته على خَدَرِ التعبْ.

القارئ لهذه الأسطر، يلمس أن الشاعر قد حمل "الأب" الحقيقي معنى رمزياً امتد واتسع حتى صار "الأرض" و"الوطن"، وأن هناك اندغاماً تاماً بينهما، فـ"الأب" في رؤية الشاعر هو الفلاح الطيب البسيط بساطة القرويين، إنه كالحديقة في بساطة عناصرها وملامحها، فالحديقة في منزل الفلاح جزء مهم منه، والأب في البيت ضرورة لازمة، وقول الشاعر" كنا هنا قبل الزمان، وههنا نبقى، فتخضر الحقول" تعبير يجسد تمسك الأب بالأرض وبحقه فيها، دون حاجة إلى براهين وأدلة منطقية عقيمة، لقد كان الشعب الفلسطيني في فلسطين، وسيبقى فيها، وبقاؤه فيها هو السر الذي يجعلها خضراء، إنه يحب الأرض ويزرعها، وهكذا تنتج، وكأن الأب بكلامه البسيط هذا يرد على المزاعم الصهيونية التي زعمت أن فلسطين كانت أرضاً جرداء ومستنقعات قبل مجيئهم إليها.

يعدد الشاعر في هذا المقطع مفردات ارتباط "الأب" بأرضه، وعشقه لها، وذكرياته فيها؛ لأنه افتقدها في غربته، وهي مفردات قد اكتسبت بعداً دالا في البعد عن الوطن، كما أضفت على التعبير خصوصية تتميز بالتأكيد الذي تجده الذات المتلقية من خلال تعداد المفردات التي يتوق الشاعر إليها، وهي متصلة بأرض فلسطين وترابها، وهي جزء منها مثل:" الأيائل، ساحة الدار الكبيرة، غصن الدالية، الحصان، الماءَ، النعنان، الأم، تدخين التبغ، حصي ثريات العنب".

تجلى البعد الإنساني في شخصية الأب في معاملته للحصان وحبه له، وعطفه عليه، إنه رمز الأصالة والبقاء فوق هذه الأرض، إلى جانب علاقته بابنه: العلاقة المترعة بعاطفة الأبوة الحانية، فالأب مصدر الأمان والسكينة والطمأنينة للابن، وهو الملاذ والموئل الذي يلوذ به الابن عند الشعور بالمشقة والتعب، إن إنسانية الأب هي في الواقع إنسانية الشاعر قبل كل شيء، إنه يدافع عن هذه الإنسانية الصادقة التي تلتصق بالأب، ويخلص له، ويتذكره، ويعدد فضائله.

إن حشد الأفعال المضارعة مثل:"يصلح، يقدم، يُعرف، يلاطف، يهمس، يتناول، يدخن، يحصي" أدى دوراً مهماً في رسم أبعاد شخصية "الأب" وملامحها، وعكست هذه الأفعال المتتابعة وبلا عطف جو المحبة والرفق والحنان داخل الذات وخارجها، وأفضى توالي الأفعال وتتابعها أيضاً إلى خلق حركة نشطة أسهمت في نمو الحدث وتجدده، فكأن الشاعر يعرض أمام المشاهد صوراً حسية ذات طابع حركي متماوج لما قامت به هذه الشخصية من أفعال إنسانية سامية.

مثّل الربط بين صورة الإنسان الفلسطيني"الأب" وتجليات المكان الريفي وما فيه من عناصر الطبيعة من حقول القمح والبئر سمة بارزة في شعر محمود درويش، يقول في قصيدة" في يدي غيمة"(15):

... كان أبي يَسْحَبُ الماءَ من بِئْره ويقولُ
لهُ: لا تجفَّ. ويأخذني من يدِيْ
لأرى كيف أكبُرُ كالفَرْفَحِينَةِ...

صور الشاعر في هذه الأسطر تعلق الأب بأرضه وحقوله التي تعطيه الحياة، متمثلة في البئر مصدر العطاء والحياة الدائم التي استمد منها الأب بقاءه في أرضه وتشبثه فيها، أما الماء فهو رمز الخير والحياة والنماء الذي يمثل ذكره هنا استرجاعاً للمكان، وما له من ارتباط قوي بالبيت والأرض والإنسان، وفي الأسطر لفتة إنسانية تعبر عن أبعاد شخصية الأب الإنسانية، التي تفيض بعواطف الأبوة الحانية التي يمنحها الأب لابنه، ويستمد عواطفه وأحاسيسه الإنسانية هذه من توحده وتماهيه بعناصر الطبيعة/ الأرض، فالابن ونبات الأرض كلاهما كيان واحد لا ينفصلان، ينتظر"الأب" أن ينمو كل من"الابن" و"الفَرْفَحِينَةِ" ويكبرا أمام ناظريه؛ ليمنحاه بعد ذلك الخير والحياة.

وفي قصيدة "رسالة من المنفى" تجلت صورة الأب الفلسطينيّ الفلاح المكافح بشكل واضح من خلال خطاب الشاعر/ الابن الموجّة لأمه، فهو يسألها قائلاً(16):

فكيف حال والدي؟
ألم يزل كعهده ، يحبّ ذكر الله
والأبناء.. والتراب.. والزيتون؟
وكيف حال إخوتي هل أصبحوا موظّفين؟
سمعت يوما والدي يقول:
سيصبحون كلّهم معلّمين..
سمعته يقول:(أجوع حتى أشتري لهم كتاب)
لا أحد في قريتي يفكّ حرفا في خطاب.

تجلت في هذه الأسطر بعض ملامح صورة "الأب" الفلاح؛ بوصفه إنساناً مؤمناً ذاكراً لمولاه –عز وجل–، عاشقاً لأرضه وزيتونها، مكافحاً في سبيل تنشئة أولاده وتعليمهم؛ ليحقّقوا وجوداً أفضل في الوطن، ذلك الوطن الذي كان من أسباب ضياعه انتشار الجهل فيه(17).

إن الكشف عن ملامح شخصية "الأب" وأبعادها، يجعل المتلقي يدرك أنه أحد القرويين البسطاء الذين يعشقون الأرض وأشجارها ونباتها وحيوانها، فهو مرتبط بالأرض مسكون بفصولها، وتقلبات تلك الفصول، وأن هذه الأشجار والنباتات لها صلة وثيقة بطبيعة فلسطين، فأشجار الزيتون، والينابيع، والأعشاب، وهي جميعها تحمل دلالات ورموزاً على

طبيعة فلسطين وجغرافيتها، وجاء استخدامه لعنصر التشخيص نابضاً بالحياة والحركة؛ كاشفاً عن مدى التفاعل والتداخل بين هذه العناصر وشخصية "الأب"؛ لأن"الأب" أُجبر على هجرها ومغادرتها؛ ليحل محله قوم غرباء من الصهاينة، لا تربطهم بعناصر هذه الطبيعة أية روابط، سواء أكانت تاريخية أم وطنية.

ب- صورة الأب اللاجئ

تبدو هذه الصورة تطوراً طبيعياً في حياة "الأب"، بعد أن طُرد من أرضه ووطنه ليصبح لاجئاً، إنها صورة مرتبطة بالواقع الفلسطيني الناجم عن نكبة 1984م، حيث تحول الفلسطينيون إلي لاجئين في داخل بلادهم وخارجها، الأمر الذي أدى إلى احتدام الصراع الصهيوني على الأرض والهوية.

فالأب اللاجئ قد اهتزت مكانته الاجتماعية كأب، ولم يعد قادراً بسبب ما حلَّ به من فقر وجوع وتشرد ولجوء على تقديم الدعم الجسدي والنفسي للأسرة؛ لذا تولى الصليب الأحمر وظيفة الأب في رعاية أسر اللاجئين، ففي قصيدة" أغنية ساذجة عن الصليب الأحمر"، يخاطب الابن أباه بكلمات تقطر مرارة حزناً وألماً(18):

يا أبي! هل غابة الزيتون تحمينا إذا جاء المطر؟
وهل الأشجار تغنينا عن النار، وهل ضوء القمر
سيذيب الثلج، أو يحرق أشباح الليالي
إنني أسأل مليون سؤال
وبعينيك أرى صمت الحجر
فأجبني، يا أبي، أنت أبي
أم تراني صرت ابنا للصليب الأحمر؟!

يقوم هذا المقطع على ثنائية الأب والابن، وهي ثنائية ذات أبعاد رمزية، تكشف عن رؤيتين مختلفتين، يمثل فيهما "الأب" جيل الآباء والأجداد، ويمثل فيها الابن الجيل الجديد من الشباب الذي يرفض الواقع المعيش ويتمرد عليه، ويجيء استحضار صورة "الأب" في هذا المقطع؛ ليكون شاهداً حيا على معاناة الإنسان الفلسطيني في الشتات واللجوء، ويكشفَ

زيف رسالة الصليب الأحمر، ويُوقفَ الذات المتلقية على تناقض بعض الهيئات الدولية التي تدعي لنفسها القدرة على حماية المستضعفين في العالم.

توسل الشاعر في هذا المقطع السخرية الدامعة أو السوداء وسيلة للتعبير عن موقفه ورؤيته الإنسانية، فقد بلغت الملهاة السوداء ذروتها حين تمثلت الحالة الفلسطينية التي انتهت إلى تحول الفلسطينيين إلى لاجئين مشردين، فالشاعر يبدو حزيناً مهموماً ساخراً في الآن ذاته، إنه لا يكف في أشعاره عن توظيف تقنية السخرية الدامعة أو السوداء حتى غدت سمة أسلوبية بارزة في نصوصه الشعرية؛ إلى الدرجة التي أصبحت تعد فيه هذه التقنية مدخلاً من المداخل المقترحة لقراءة أشعاره وتحليلها، لما لها من تلاوين وأبعاد وكيفيات متعددة(19).

وفي مقطع آخر من القصيدة ذاتها يتخذ الشاعر من "الأب" متكأً للكشف عن الواقع الفلسطيني المعيش في ظل الاحتلال، وظل بعض الهيئات الدولية: كالصليب الأحمر، التي حاولت أن تُنسي أبناء الشعب الفلسطيني آماله في العودة إلى وطنهم، وتنسيهم تهديم بيتهم، وأن تكتفي بتقديم الحلوى وحبات الزبيب لهم، يقول في القصيدة نفسها(20):

يا أبي! هل تنبتُ الأزهار في ظلّ الصليبْ؟
هل يغنّي عندليبْ؟
فلماذا نسفوا بيتي الصغيرا
ولماذا ، يا أبي ، تحلم بالشمس إذا جاء المغيبْ
وتناديني، تناديني كثيراً
وأنا أحلم بالحلوى وحبّات الزبيبْ
في دكاكين الصليب الأحمرِ.

يرسم الشاعر ملامح صورة "الأب" التي تكشف عن أب يحلم بأن قرارات الهيئات الدولية ستتيح له العودة إلى الوطن وأزهاره وطيوره، بينما الواقع المعيش يكذب حلمه، فالبيت قد نُسف، والشمس قد غابت، ولا أزهار ولا طيور مغرّدة، وأمسى الحصول على شيء من الحلوى وحبات الزبيب من مخيّمات الصليب الأحمر أمنية عزيزة.

تجلت في النصين السابقين صورة"الابن" الذي يبث آلامه وأحزانه لأبيه بوصفه عمود الأسرة وركنها الركين، مطالباً إياه أن يتحمل مسئوليته الاجتماعية في توفير متطلبات الحياة

الكريمة لأسرته، إلى جانب بروز صورة "الأب" المسلوب الإرادة الذي يستحق العطف والشفقة، وتكشفت أيضاً ملامحه عن شخصية ملومة من قبل الابن، فهو أب مقهور تحول إلى لاجئ مشرد، لا حول له ولا قوة. ومما يزيد من معاناة هذا الأب وهمومه أن الشاعر لا يعمد إلى تقديم صوت الأب في هذه المحاورة، بل يترك للذات المتلقية أن تتعرّف إليه من خلال كلمات الابن.

من يتابع صورة الأب اللاجئ، يتبين له أن هذا الإنسان الذي طُرد من أرضه قسراً لن يظل مستسلماً خانعاً لهذه الحالة من التشتت والغربة والعيش في مخيمات الشتات، إنه يتطلع إلى تغيير هذه الحال عن طريق الثورة والتمرد عليها، يقول الأب مخاطباً ابنه(21):

أخذوا منكَ الحصان الخشبي
أخذوا ، لا بأس ، ظلّ الكوكب
يا صبي!
يا زهرةً البركان، يا نبض يدي
إنّني أبصر في عينيك ميلاد الغدِ.

حاول الشاعر أن يطور من شخصية"الأب"، فهو لا يكتفي بتمثيله في صورة لاجئ فحسب، وإنما انتقل به إلى صورة جديدة مختلفة، فقد غدا يتطلع إلى الثورة على المحتل الغاصب؛ للتخلص من حالة اللجوء المزرية، الثورة التي سيقودها الابن وأمثاله من جيل الغد في سبيل العودة إلى الوطن، إنه يرى في هذا الجيل بداية بركانْ قادم؛ ليحرق أعداءهم، فالابن جزء لا يتجزّأ من نبضه الخفّاق بحبّ الوطن وأهله الذين تشرّدوا في المنافي والشتات، ولا بدّ أن يلدوا عند عودتهم بالثورة والعزم والإصرار.

استخدم الشاعر أيضاّ الرمز الشعري الشفيف البعيد عن الغموض؛ لتكثيف المعني وتعميقه، فكان" المطر" رمزاً للشر والخراب واللجوء، أما "الصليب الأحمر"، فهو رمز اللجوء والتشرد والشتات، واستمرار المأساة، وبقاؤه مصدراً للعطاء والمعونة يعني استمرار التشرد والشتات والتمزق، وتناسي القضية وتغافلها.

وجاء التعويل على إمكانات الحوار الخارجي الفنية؛ لتحديد معالم شخصية "الأب" اللاجئ الشعرية، فالمتلقي يجد في هذه القصيدة صوتين يسيطران عليها برمتها، وهذان الصوتان يملآن الصراع الذي يدور في نفس الإنسان العربي اللاجئ، صوت التساؤل

واليأس والشك، وصوت الأمل واليقين بالنصر، فتعدد الأصوات في فضاء النص الشعري يدخل النص في حوار يدفعه إزاء التصاعد الدرامي، ويحقق القيم الدلالية والجمالية فيه.

وعلى الرغم من أن صورة الأب اللاجئ التي عرض الشاعر بعضاً من ملامحها وأبعادها، فإن "الابن" المتمرد الرافض للواقع المعيش، الذي يحمل رؤى ومواقف مناقضة لرؤى أبيه؛ ما زال يعرف للأب مكانته ومنزلته في الأسرة، فلا يسقطه من حسابه، إنه يخاطبه ويحاوره، ويجعل منه شخصية إنسانية قابلة للتحاور والتعامل والمشاركة، فقد كرر نداءه لأبيه في هذه القصيدة بقوله "يا أبي" سبع مرات، وهذا التكرار يشي بإدراك الابن لمكانة أبيه ومنزلته من قلبه وفكره، بيد أن صورة الابن تظل صورة تجسد الإنسان الرافض للواقع المعيش، واقع اللجوء، تدعو إلى التمرد عليه، وتغييره. فالشاعر/ الابن يبحث عن التغيير: التغيير على المستوى الخاص، وعلى المستوى العام؛ فالتغيير له مفهومه الخاص في نفس الشاعر، إنه الارتباط بالقضية الإنسانية للشعب الفلسطيني.

د- صورة الأب المقاوم:

يعد هذا الجانب من صورة "الأب" تطوراً لما سبقه من صور وتمثيلات، فالأب الفلسطينيّ الفلاح المرتبط بأرضه، واللاجئ الذي لا حيلة له، يغدو مقاوماً ثائرا متمرّداً. يقول في قصيدة " أبد الصبار" على لسان الابن الذي حاور أباه في لحظة من لحظات الاقتلاع والتشرد(22):

يقول أبٌ لابنه: لا تَخَف. لا
تَخَف من أزير الرصاص! إلتصق بالتراب لتنجو!
...تحسّس مفتاحه مثلما يتحسّس
أعضاءه، واطمأنَّ. وقال له
وهما يعبران سياجاً من الشوك:
يا ابني تذكر! هنا صلب الإنجليز
أباك على شوك صبارة ليلتين،
ولم يعترف أبداً. سوف تكبر يا
ابني، وتروي لمن يرثون بنادقهم سيرة الدم فوق الحديد...

شهد هذا المقطع حضوراً قوياً لشخصية "الأب"، بوصفه إحدى الشخصيات المحورية التي تمسك بزمام الأحداث وتناميها، وتجلت أيضاً فيه علاقة الأبوة الحميمية التي تربط الأب بالابن، فقد حاول الشاعر أن يضفي على ملامح صورة "الأب" الفلسطيني ما يجعله إنساناً مقاوماً ثائراً، إذ ركز في رسم معالم صورته على الملامح الداخلية من: شجاعة وقوة، وإيمان قوي بالعودة إلى الوطن، وتشبث بالأرض، وهو بوصلة المستقبل لأبنائه من بعدهً. واتصاف "الأب" بمثل هذه السمات يمثل الصورة التاريخية لنضال الفلسطيني ضد أعدائه المحتلين.

برز في هذا المشهد عنصر الصراع والتوتر بصورة واضحة، فكشف عن صراع الإنسان الفلسطيني ضد المحتل الصهيوني، إذ حاول الشاعر رصد رؤية شخصية "الأب" الداخلية، وما يدور في خلده من أفكار ومعان.

أدت "الأفعال" دوراً حاسماً في كشف أبعاد هذا الصراع وتناميه، فالفعل الماضي (تحسّس) يحمل دلالة الحرص على بقاء المفتاح، أما الفعل الماضي (اطمأن) فيشي بدلالة الراحة النفسية، والأمل الممتد في العودة إلى الوطن، فهو يحرص على سلامة المفتاح كما يحرص على سلامة أعضاء جسده، ودال "المفتاح" يحمل دلالة رمزية مجازية للوطن الغائب" حيث ينوب الجزء عن الكل: ولأن المفتاح جزء من البيت، فهو ينوب عن الوطن كله. لذا فهو يستحق أن يتحول إلى جزء من الإنسان، ألا نرى كيف يتوحد الإنسان بالأرض، في هذه القصيدة!"(23).

وظف الشاعر أيضاً الرموز الموحية؛ لتكثيف المعنى وتقوية عنصر السرد في النص، فالأب يمثل رمز المجاهد المناضل الذي كان صلْبه على يد المحتلين الإنجليز دلالة على عقوبة المناضل الشريف الذي سعى جاهداً لتحرير وطنه، المناضل الذي يورث ابنه إرثه الجهادي الذي يتبلور في قصة الدم الذي سينتصر على حديد بني صهيون(24)، وأما "الابن" فهو رمز لجيل النصر الذي لابد أن يستمر في المقاومة حتى تحرير الوطن.

تطورت صورة "الأب" المقاوم، في وعي الشاعر الفني ونمت ، فطوّر تبعاً لذلك وسائل تعبيره الشعري، فلم تعد مقاومة"الأب" محصورة في كلمة أو جملة شعرية أو بيتاً من الشعر، وإنما غدت قصيدة كاملة مؤسسة على البنية الدرامية.

من يتأمل الملامح التي أضفاها الشاعر على شخصية "الأب"، يجدها تدور حول جملة من الملامح الإنسانية الذاتية مثل: القوة والجلد والصمود، وهي خصال متوارثة عن الآباء والأجداد، حاول الشاعر أن يثبتها في شخصية الفلسطيني(25)؛ ليتمكن من تحلّى بها أن يعود إلى وطنه المغتصب، يقول(26):

"**.... ويقولُ**
أبٌ لابنه: كُن قوياً كجدّك! واصعد معي تلّة السنديان الأخيرةَ
يا ابني، تذكّر: هنا وقع الإنكشاريُّ
عن بغلةِ الحرب، فاصمُد معي لنعودْ.

وعندما يسأل الابن أباه عن العودة الى البيت، وهما على درب "قانا"، يجيبه الأب في خاتمة القصيدة بقوله(27):

... يا ابني تذكّر غداً. وتذكّر قلاعاً صليبيّةً
قضمتها حشائش نيسان بعد رحيل الجنود...

اصطبغت شخصية الفلسطيني"الأب" بأبعاد إنسانية تتمثل في كونه مصدر الطمأنينة والقوة والصمود والرحمة والحب الإنساني التي استمد أبعادها وملامحها من تراثه الحضاري، إن لديه قناعة عميقة بأن الغرباء المحتلين سيرحلون عن هذه الأرض مهما طالت مدة مكثهم، ومهما فعلوا من أجل البقاء، كما رحل قبلهم من الغرباء.

اكتنز المقطع السابق بغنى في عناصره السردية من سرد ووصف وحوار وخاتمة سردية، إذ أدت النهاية المفتوحة لمشهد صورة "الأب"،– وما سبقها من تمهيد موحٍ لهذه النهاية المفتوحة– إلى اكتمال أبعاد هذه الصورة وملامحها، فضلاً عن كونه غَنِيا بدواله ودلالاته المفتوحة، فدال "السنديان" يوحي بالشموخ والثبات والتجذر وبأصالة حق الفلسطيني في أرضه، وامتداد جذوره فيها كشجرة السنديان الشاهدة على ذلك.

واللافت للنظر في هذا المجال أن العلاقة بين الأب والابن لم تكن دائماً في حالة توافق وانسجام، وإنما اعتراها أحياناً من الأمور ما جعلها تنهض على الاختلاف والتناقض؛ بسبب تباين الرؤى والاتجاهات والمواقف، فقد عوّل الشاعر في رسمه لبعض معالم هاتين الشخصيتين على عنصر الصراع والتوتر الذي أخذ آلية بنائية متحركة ونامية، فأدى دوراً

مهماً في ترسيخ المغزى التي تسعى الذات الشاعرة الى طرحه في وجدان المتلقي وفكره، يقول من قصيدة" ليلة البوم"(28):

...هاهنا حاضر لا مكان له
ربما أتدبر أمري وأصرخ في ليلة البوم:
هل كان ذلك الشقي أبي، كي يحمّلني عبء تاريخه ؟

جسد هذا المقطع العلاقة بين"الأب" و"الابن" في صورة شديدة من التوتر والتمزق والانكسار، تحولت بدورها إلى مواجهة حادة بينهما، وقد تجلت مظاهرها في تحميل"الابن" الذي يرمز للجيل الجديد من الأبناء"الأب" الذي يرمز لجيل الآباء مسئوليةَ ما حدث للشعب الفلسطيني من تمزق وانكسار وتشتت، وتشير إلى أن الأب وأمثاله هم السبب في جعل الشاعر يرث التجربة المثقلة بعبء الانتماء إلى هذه الأرض.

وأدت حالة اللجوء والتشرد أيضاً دوراً بارزاً في جعل "الابن" يشكو وطأة الفقر وألم الجوع؛ الأمر الذي دفعه إلى أن يتوجه باللوم إلى أبيه الذي خرج من وطنه إلى مخيمات الشتات، ويحمّله مسؤولية التفريط في الأرض، وطابعها الإنساني، يقول(29):

عندما تُفرغُ أكياس الطحينِ
يصبح البدرُ رغيفاً في عيوني
فلماذا يا أبي، بعتَ زغاريدي وديني
بفتاتٍ وبجبنٍ أصفرِ
في حوانيت الصليب الأحمرِ؟

تعامل الشاعر في هذا المقطع مع الأشياء الصغيرة والعادية في الحياة اليومية للإنسان الفلسطيني اللاجئ، فأكياس الطحين، والرغيف، وفتات الخبز، والجبن الأصفر، والحوانيت، والصليب الأحمر، من معطيات الحياة اليومية ومعجمها الخصب، وقد اقترب منها الشاعر في ألفة، وصاغها في عذوبة فنية مرهفة.

وأدى تنوع القافية وتوزعها بين النون المكسورة في أواخر الأسطر الثلاثة المتعاقبة(الطحينِ، عيوني، ودينـي) وبين الراء الذي حُرك بالكسر في السطرين

الأخيرين(أصفرِ، الأحمرِ) إلى إحداث إيقاع خاص ينسجم مع إيقاع الغضب والتمرد والرفض السائد في جو النص والذي لا يخلو من تعبير عن ألم مكبوت وسخرية مرة.

المتأمل في طبيعة المواجهة بين الأب والابن، يتبين له أنها لم تكن مواجهة عميقة إلى الدرجة التي تفضي إلى المقاطعة والانفصال، وإنما كانت مواجهة طارئة، وليدة الانفعال بسبب قسوة الرحيل وترك الوطن، وأنها سرعان ما انتهت بالمصالحة والتوافق بين الطرفين، إذ أدرك كل طرف منهما مسئوليته؛ لذا كان من الطبيعي أن ينمو الحدث ويتصاعد نحو الذروة، ثم تخف حدة التوتر والصراع، ويأخذ في الانفراج في النهاية، فقد أدرك الابن الذي يمثل الجيل الجديد دوره في استمرار المقاومة إلى آخر رمق، يقول في قصيدة "إلى آخري وإلى آخره..."(30):

يا أبي، هل تعبت
أرى عرقاً في عيونك؟
– يا ابني تعبتُ... أتحملني؟
مثلما كنتَ تحملني يا أبي،
وسأحمل هذا الحنين إلى أوّلي وإلى أوَّلِهْ
وسأقطع هذا الطريق إلى آخري... وإلى آخرهْ!

إن الصورة التي رسمها الشاعر"للأب" هي تجسيد للذات الفلسطينية في كفاحها ومقاومتها وتحديها للآخر، توحي بدلالات القوة والشجاعة والإيمان بحق العودة، فتكون بذلك الصورة المثلى للإنسان الفلسطيني في صراعه مع الغزاة الذين طردوا أهل الوطن من أوطانهم.

هـ– صورة الأب التراث:

تعد الشخصيات التراثية مادة خصبة وظف الشعراء الفلسطينيون عناصرها بطرق شتى وأشكال مختلفة للتعبير عن رؤيتهم الإنسانية المتماهية مع أبعاد القضية الوطنية الفلسطينية؛ وفي سبيل ذلك عمد الشاعر درويش إلى استدعاء عدد من الشخصيات التراثية التي تمثل في مواضعاتها صورة "الأب" وأسقط أبعادها على شخصية "الأب" الفلسطيني، لما بينهما من تشابه أو اختلاف يخدم فكرته ورؤاه.

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب الشخصيات التراثية التي وظفها الشاعر في فضاء نصوصه الشعرية تنتمي الى الموروث الديني الذي يشكل أرضية مشتركة بين الشاعر والمتلقي، ويعد من أكثر المصادر التراثية تغلغلاً في الوعي والوجدان.

ومن أهم الشخصيات الدينية التي استخدمها الشاعر في بعض قصائده شخصيات الأنبياء– عليهم السلام – التي شاع استخدامها شيوعاً لافتاً في الشعر العربي المعاصر ، وتأتي شخصية النبي يوسف– عليه السلام – في طليعة الشخصيات التي استغلها الشاعر فنيا وفكرياً، وذلك في قصيدته" أنا يوسف يا أبي"، وهو يستخدمها في إطار ملامحها القرآنية المعروفة، يقول في تلك القصيدة (31):

"أنا يوسف يا أبي. يا أبي، إخوتي لا يحبونني، لا يريدونني بينهم يا أبي. يعتدون عليَّ ويرمونني بالحصى والكلام. يريدونني أن أموت لكي يمدحوني. وهم أوصدوا باب بيتك دوني. وهم طردوني من الحقل. هم سَمَّموا عِنبي يا أبي. وهم حطّموا لُعبي يا أبي. حين مرَّ النسيم ولاعب شعريَ غاروا وثاروا عليَّ وثاروا عليكَ، فماذا صنعتُ لهم يا أبي؟....".

تجلت في هذه اللوحة الفنية ثلاثة أنماط من الصور الإنسانية، أضفي عليها الشاعر أبعاداً رمزية وهي:

صورة الابن: وهو النبي" يوسف" – عليه السلام–، وقد اتخذها الشاعر رمزاً للتعبير عن الإنسان الفلسطيني، فتحول "يوسف" /الشاعر إلى نموذج للاجئ، الفقير، المنبوذ، وغدا فيها ناطقاً باسم القضية الفلسطينية، يرسم صورة صادقة لمعاناة هذا الشعب.

صورة الأخوة: أخوة النبي "يوسف"، الذين تركوه يعاني التشرد والضياع، ويواجه العدو وحده من غير أن يقفوا معه في خندق المقاومة، بل حاولوا التخلّص منه والقضاء على ثورته بأن زجوه في عمق البئر في سبيل الاستحواذ على"الأب"، وهو يرمز لهم ببعض الأخوة العرب الذين باعوا القضية الفلسطينية كما باع يوسفَ من قبلُ إخوتُهُ، وهم الذين اعترضوا على الطريق الذي اختاره "الابن"؛ لنيل حقوقه من العدو طريق المقاومة لا الاستسلام.

صورة الأب: وهو النبي"يعقوب"، ويرمز"الأب"هنا للأنظمة العربية التي تبنت القضية الفلسطينية والتي توجهت إليها الذات الشاعرة بالشكوى من الأخوة العرب الذين تخلّوا عنه

وتركوه يواجه مصيره بعد أن صار عبئاً على استقرارهم في عصر جديد، "وربما كانت هذه الإشارة هي إشارة درويش الأولى والوحيدة إلى اتخاذه أباً عربياً، ولعلّ مسار القصة التي يتناصّ معها هو ما فرض عليه تمثيل هذا الأب الذي لا يتوجّه إليه عادة في خطابه الشعري"(32).

أحال الشاعر شخصية "الأب" إلى مرجعية دينية هي مفتاح تجربته الشعرية، وفيها تبدو الذات الشاعرة ناقدة للواقع السياسي المعيش ورافضة لعناصره، إنه حاول أن يبين للمتلقي أن العلاقة التي تربط الابن بالأب هي علاقة وئام ومحبة في مقابل إبراز أن العلاقة بين الابن وأخوته علاقة سالبة، تتجلى فيها ظاهرة العداء واضحة بينة، وبذلك يتجه الشاعر إلى استدرار تعاطف أبيه، ويجعله يتبنى موقفه ورؤيته، من خلال كشفه حقيقة أخوته وتعرية موقفهم، فهم الذين تمردوا على الأب قبل تمردهم على الابن "وهم الذين" غاروا وثاروا عليّ وثاروا عليكَ، فماذا صنعت لهم يا أبي؟ ".

استثمر الشاعر الطاقات الإيحائية التي اكتنزت بها الشخصيات في القصة الدينية، وأضفى عليها ثوباً جديداً من تجربته، وحاول امتصاص مضمون هذه القصة ، وتحويره بما يتلاءم وتجربته الإنسانية، فعبارة "أنا يوسف يا أبي" في النص "الديني" لم تكن موجهة أصلاً إلى الأب، وإنما كانت موجهة إلى الإخوة؛ ليؤكد لهم أنه هو"يوسف"، وبأن الله أكرمه، ولكن النص الشعري لم يتقيد بما جاء في قصة يوسف –عليه السلام–، وإنما فارق النص الديني بكلمة "يا أبي"؛ الأمر الذي جعل عبارة "أنا يوسف يا أبي" تزخر بالشكوى، وبالمسكوت عنه في النص "الديني"، وكأنه بهذه الصياغة يخبر عن شكوى يوسف لأبيه، وهي كلمات ترد على شكل حضور صريح تأخذ أسلوب إيماءات تشع ببريق القصة الدينية؛ ليتوارى خلفها كلام مفارق ينهض شكلاً آخرَ من أشكال الإيحاء، ويتسم بالدلالات الموحية.

وقد وفق درويش في توظيفه عناصر قصة يوسف – عليه السلام – وشخصياتها المحورية؛ لإدراكه مدى حضور هذه القصة في الذاكرة الإنسانية والإسلامية؛ ولما تختزنه من بلاغة في الموضوع، وإنسانية تحاكي الوجدان والأحاسيس، فأخذت القصيدة بذلك أبعاداً جمالية وفكرية ثرة؛ الأمر الذي جعل منها خطاباً إنسانياً كما هي القضية الفلسطينية، وكما كان يريدها الشاعر.

وقد أضفي درويش على العلاقة بين الأب والابن لوناً من التواصل الإنساني الحميم، من خلال تكرار عبارة "يا أبي" التي جاءت في صورة أسلوب نداء ثماني مرات، وغدت لازمة لغوية، وقد صاغها في أسلوب نداء إلى جانب توظيفه أسلوب الاستفهام الاستنكاري ليشي برفضه للواقع، إنه يريد أن يقول لأخوته العرب: إن أبانا واحد، ودمنا واحد، فلماذا اعتراضكم لماذا رفضكم.. لماذا الاختلاف؟ إنهم يريدون أن يحرموه من مجرد أن يحلم باستعادة أرضه، ونيل حريته واستقلاله،وتحرير مقدساته.

ومن الشخصيات الدينية التي وظفها محمود درويش في شعره شخصية السيد المسيح – عليه السلام – ، إذ جاءت هذه الشخصية ترمز للإنسان الفلسطيني الذي يلاحقه الظلم والعذاب والقتل والتشريد في كل مكان، فقد اتخذ الشاعر من السيد المسيح الابن، وذلك في عشائه الأخير مع حواريه قبل القبض عليه(33)؛ متّكأ للشكوى من الواقع المرير(34):

يطولُ العشاء الأخيرُ: تطول وصايا العشاء الأخيرْ
أبانا الذي معنا! كن رحيماً بنا، وانتظرنا، قليلاً، أبانا!
ولا تبعد الكأس عنّا. تمهّل لنسأل أكثر مما سألنا
ولا تتهم أحداً. كن رحيماً بمن سوف يضعف منّا،
... إلى أوّل الماء خذنا، إلى أوّل الشيء خذنا، إلى أوّل الكلمة.
لقد طال هذا العشاء، وقلّ الرغيفُ، وطالتْ وصاياكَ، فاصعدْ بنا
لأنّ "الرسائلَ" بعدَك تغتالُنا واحداً واحداً.. يا أبانا.

استحضر الشاعر إلى فضاء النص الشعري شخصية السيد المسيح –عليه السلام– ممثل "الأب" على الأرض وفق الطرح الديني في الموروث المسيحي، حيث جسّد هو وتلاميذه من بعده رمز المحن وألوان التعذيب والمآسي والشقاء والتضحية بالذات في سبيل الفكرة، وتفاعل معها، وأضفى عليها أبعاداً جديدة من تجربته المعاصرة ما جعلها تعادل شخصية الإنسان الفلسطيني الذي عانى القتل والتشريد والخروج الأول من الوطن سنة 1948م ، والخروج الثاني من بيروت سنة 1982م.

إن الموقف الذي أطيح فيه بالسيد المسيح –عليه السلام– "الأب" ، وببعض الأبناء "الرسل" من بعده على يد أعدائهم من بني إسرائيل في ملامحه يماثل ما حدث للأب الفلسطيني وأبنائه أنبياء المقاومة الفلسطينيّة من اغتيال وقتل خلال مرحلة بيروت وما

بعدها، ففلسطين مهد المسيح، تعاني وتتألم وتواجه القدر القاسي مثلما واجهه المسيح في زمانه، وربما ينتصر الحق ذات يوم كما انتصر المسيح، فقيامة المسيح انتصار على الموت.

وفي مشهد آخر استدعى الشاعر شخصية السيد المسيح– عليه السلام–، التي ترتبط ارتباطاً حياً ومباشراً مع صورة "الأب" الفلسطيني؛ بوصفه رمزاً للانبعاث والقيامة بعد الموت، ففي قصيدة "مديح الظل العالي" يقول مخاطباً الأب المقاوم الثائر(ياسر عرفات)(35):

عبثا تحاول يا أبي مُلكا ومملكةً
فسرْ للجُلْجُلَةْ(36)
واصعدْ معي
لنعيد للروح المشرّد أوّلهْ
... ما أكبر الفكرةْ
ما أصغر الدولةْ.

تمثل الشاعر في هذا النص بعض ملامح شخصية السيد المسيح– عليه السلام–"الأب" وصفاتها، لاسيما رحلة العذاب التي مر بها، وانتهت بالسير إلى الجلجلة، والصعود إلى خشبة الصلب في سبيل التطهّر والفداء، وأسقطها على شخصية"الأب" الفلسطيني القائد" ياسر عرفات"، فدعاه إلى التخلي عن مشروع الدولة، وطلب منه الصعود معه إلى الجلجلة، والاستمرار في المقاومة والثورة؛ حتى يغدو مؤهلاً للبعث والقيامة من جديد، فالانبعاث والقيامة لا يمكن أن يتحققا إلا بالتضحية والاستشهاد. وقد أوّل الشعراء المحدثون هذا الملمح من حياة المسيح، فاعتبروا أن كل مَنْ يقضي في سبيل فكرة أو مبدأ فإن فكرته أو مبدأه تعيش معه من خلال موته(37).

ومن شخصيات الأنبياء التي تواجدت بكثرة في نسيج النص الشعري الدرويشي شخصيةُ "آدم" –عليه السلام–، التي جاءت ترمز في بعض قصائده للإنسان الفلسطيني الذي طرد من أرضه بدون جريرة ارتكبها، ففي قصيدة " مديح الظل العالي" يخاطب الشاعر/ الابن أباه الثائر"ياسر عرفات" في لحظة خروجه من بيروت بعد حرب وحصار عام 1982م، وفي ذهنه الخروج الأوّل من فلسطين(38):

لستَ آدم كي أقول خرجتَ من بيروت منتصراً على الدنيا
ومنهزماً أمام الله
أنت المسألةْ

استحضر هذا النص بعض ملامح شخصية "آدم" –عليه السلام– بوصفه " أبا البشر" كما ورد في القرآن الكريم، واستحضر جنايته وإخراجه من الجنة، ونزوله إلى الأرض، وأسقط معالم تلك الشخصية على شخصية الإنسان الفلسطيني الذي طرد من وطنه، وشرد في بقاع الأرض.

المتأمل في توظيف ملامح هذه الشخصية، يدرك أن الشاعر لم يقدم هذا الموقف كما هو، وإنما قدمه بطريقة تخالفه تماماً؛ ليعبر من خلال ذلك عن إحساس عميق بالمفارقة لدى المتلقي بمقارنته بين موقف آدم–عليه السلام– ، والملامح المعاصرة الخاصة بالإنسان الفلسطيني التي خلعها الشاعر عليها، فإذا كان آدم أبو البشر–عليه السلام– قد عصى ربه، فطرد من الجنة، فإن "الأب" الفلسطيني لم يرتكب خطأ في حق المولى– عز وجل– ؛ ليعاقب بالطرد من وطنه، ويسكنه قوم آخرون غرباء هم الصهاينة، سوى الظلم الإنساني الواقع على الفلسطيني، واغتصاب أرضه، وتخلى قوى الحكم العربي عنه، وبهذا أسهم استدعاء شخصية النبي "آدم" إسهاماً فاعلاً في تجسيد رؤية الشاعر وموقفه.

وفي موضع آخر من القصيدة ذاتها يستدعي الشاعر شخصية آدم–عليه السلام– ويعقد نوعاً من المفارقة التصويرية التي تبرز التباين جلياً بين آدم التراثي وآدم العصري، يقول(39):

لا، لست آدم كي أقول خرجت من بيروت أو عمان أو
يافا، وأنت المسألةْ
فاذهب إليكَ، فأنتَ أوسعُ من بلاد الناس، أوسع من فضاء المقصلةْ.

يقابل الشاعر في هذا النص بين صورتين متباينتين لآدم –عليه السلام–؛ ليبين من خلال ذلك حجم المأساة التي أصبح يعانيها الإنسان الفلسطيني، فإذا كان آدم أبو البشر– عليه السلام– قد خرج من الجنة، ونزل إلى الأرض ليعمرها، ويحقق انجازاته الحضارية، ويصنع له وجوداً في الأرض، فإن آدم "الأب" الفلسطيني بعد أن خرج من وطنه قسراً، لم

يتمكن من تعمير أرضه، لأن عدوه اغتصبها منه وحرمه من تعميرها، فلم يبق له سوى الحلم الرحب الذي غدا أوسع من الأرض وما فيها من ظلم، الحلم في العودة يوماً إلى أرضه، وطرد غاصبيها منها، وتعميرها من جديد.

ومن شخصيات الأنبياء التي استحضرها الشاعر الى نسيجه الشعري شخصية النبي أيوب –عليه السلام– التي تراسلت مع أبعاد تجربته الشعرية، فالأب عند درويش يحاول إقناع ابنه المتمرّد على أفكاره بالبقاء في الوطن وعدم السفر والرحيل عنه، يقول الابن/ الشاعر في حوار مع أبيه(40):

يوم كان الإله يجلد عبْدَهْ
قلت: يا ناس! نكفرُ؟
فروى لي أبي.. وطأطأ زنده:
في حوار مع العذاب
كان أيوب يشكرُ خالق الدود.. والسحاب!

استوحى الشاعر في هذه الأسطر قصة النبي أيوب– عليه السلام– التي ترمز للصبر على الابتلاء وقوة الاحتمال والخلاص بالإيمان والرضا التام بقضاء الله برغم المحن ومعاناة الألم، وأضفى على الشخصية الدينية دلالات معاصرة، بحكم تشابه المعاناة التي يعيشها الشاعر بالمعاناة التي عاشها النبي أيوب– عليه السلام–، فجعلها تتفق مع التجربة الإنسانية التي عاناها، التي يروم التعبير عنها، والإفضاء بمكنوناتها، فالأب الفلاح يحاول أن يثني ابنه عن النزوح عن أرض الوطن، وينصحه بالبقاء فوق أديمها، ويدعوه الى التحلي بالصبر، ويروي له مثالاً على الصبر الذي يُنتج الخير مهما طال مدى الشرّ، مستلهماً إياه من ملامح شخصية النبي أيوب – عليه السلام– الذي نزل العذاب بساحته ألواناً، ومع ذلك ظلّ يشكر مولاه الذي خلقه وخلق له وسائل العذاب؛ ليختبر إيمانه، وبيّن له وسائل المكافأة على صبره وشكره. وقد تنفتح الدلالة في هذا النص الشعري على فضاءات أخرى، فتمتد صورة "الأب" الحقيقي وتتسع؛ لترمز للإنسان العربي الفلسطيني الصابر المعذب بالاحتلال الصهيوني لوطنه.

وعلى الرغم من أن استدعاء الشاعر لشخصية الدينية هنا قد جاء بصورة مباشرة، وأن توظيفه إياها في ثنايا النص كان توظيفاً جزئياً، فإنه جاء منسجماً فنياً من خلال الحوار

والأسلوب واللغة، وفكرياً من خلال تجسيده للمعنى أو الرؤية المطروحة في هذا السياق، كما أنه أدى الوظيفة التي استحضر لتأديتها بصورة متسقة مناسبة مقنعة.

ويمكن رصد ملامح صورة "الأب" كما رسمها الشاعر في النقاط الرئيسة الآتية:

– برز الاهتمام بصورة الأب واضحاً جلياً مع البواكير الأولى لأشعار محمود، وظل هذا الاهتمام متواصلاً حتى المرحلة الأخيرة من تجربته الشعرية.

– تطورت صورة الأب في وعي الشاعر ورؤيته الإنسانية من أب فلاح متشبث بأرضه، إلى لاجئ يقيم على تخوم جنّته المفقودة، حزيناً مستسلماً، ملوماً من جهة "الابن"على بعض مواقفه، إلى شخصية مقاومة ثائرة مناضلة، وهذا التطور متصل بتطور الفن الشعري لدى الشاعر، ففي الوقت الذي تجلت فيه ملامح "الأب" في صورة مباشرة واضحة المعالم قريبة التناول، فإنها تطورت إلى شخصية مبنية على الإيحاء والتكثيف والدرامية في رسم أبعادها وملامحها، مع توظيف التقنيات الحداثية من صور شعرية ورموز وتصوير سردي وحوار درامي.

– ظلت صورة "الأب" حاضرة في ذهن الشاعر، لم يغفلها، ولم يسقطها من موقفه ورؤيته، وإنما أعطاها مساحة واسعة من الاهتمام، والتفاعل والمشاركة.

– توزعت صورة "الأب" في نسيج محمود درويش الشعري تبعاً لاختلاف التجربة والرؤية الشعرية على مستويين: أحدهما: "الأب" الحقيقي، وتبدى هذا المستوى منذ بداياته الشعرية، والآخر: "الأب" الرمزي، وتجلى ذلك في المراحل المتأخرة من نتاجه الشعري، وكثيراً ما كانت صورة "الأب" الحقيقي في نصوصه الشعرية تتداخل مع صورة "الأب" الرمزي وتتشابك، وتلتغي الحدود بينهما.

– تجلت العلاقة بين الابن والأب بأنها علاقة تواصل إنساني حميم، وتشكلت في ظل الواقع الذي يعيشه الإنسان الفلسطيني في ظل الاحتلال، وإن اعترى هذه العلاقة أحياناً نوع من التوتر والصراع، والخلاف بسبب تباين الرؤى والمواقف، فإنه يظل توتراً وصراعاً مؤقتاً، سرعان ما يزول، وتعود العلاقة بينهما إلى علاقة محبة ووئام والتحام.

– ظل الشاعر ابناً باراً بأبيه، فهو يعترف له بدوره الجليل في تكوين شخصيته، وفي بذر كثير من القيم الوطنية في فكره ووجدانه، فقد غرس في نفسه حب الأرض وعشقها، وارتباطه بها، وأمده بزاد لا ينفد من الصمود والتحدي، فكان امتداداً له.

– كانت صورة الأب كما رسمها الشاعر قريبة من أرض الواقع المعيش، لصيقةً بها، فلم يخيّب "الأب" طموحات أبنائه، ولم يَفقد دوره في تنشئتهم وتربيتهم على حب الوطن، ومقاومة المحتل والصمود في وجهه، ولم يتهاون في إعطائهم الإحساس بالأمل في العودة يوماً إلى أرضهم التي اغتصبها المحتلون الصهاينة.

– ظهر استثمار الشاعر للتراث في استدعائه لعدد من الشخصيات الدينية: كشخصيات الأنبياء، وقد جاءت تلك الشخصيات منسجمة مع أفكاره ورؤاه الإنسانية، ومتسقة مع سياق النصوص الشعرية، كأنها لبنة من لبناتها، وقد أدت دورها في تعميق التجربة وإكساب الموقف والشخصية مزيداً من التكثيف والإيحاء.

ثانياً – صورة الأم في شعر محمود درويش:

شكلت المرأة بعامة والأم بخاصة موضوعاً أساسياً في نتاجات محمود درويش الشعرية، فقد استأثر موضوع "الأم" باهتمام الشاعر وعنايته، وكان لصورتها حضور مكثف في قصائده.

تنوعت صورة الأم لدى الشاعر وفق القيم الإنسانية التي عبر عنها من: حب وحنان وتضحية وإيثار ووفاء وحنو وتفان وإخلاص وعطاء بلا حدود. وتعددت أيضا صورتها بتعدد رؤى الشاعر وأساليبه الفنية، فقد تناول صورتها أحيانا بشكل مباشر، وأضفي أحيانا أخرى على ملامحها دلالات رمزية، وأسقط على شخصيتها أبعاداً أسطورية مزجت بين الحقيقة والخيال؛ بقصد إبراز تعلقه بهذا الرمز الذي بلغ عنده حد التقديس، فجعل منها رمزاً للوفاء والتضحية، وربط بينهما وبين الأرض والوطن، فغدت مرادفاً له.

وفي مكنة الباحث مقاربة صورة "الأم" في شعر محمود درويش من جوانب أربعة هي: صورة الأم الحقيقية، وصورة الأم الجمعية، وصورة الأم الأرض والوطن، وصورة الأم التراثية(41).

أ – صورة الأم الحقيقية:

تعد الأم نبض الحنان الذي لا ينضب، ومصدر الحب والعطف والحنين، وهي الحضن الذي يستقبل المرء أول لحظة في هذه الحياة، وهي ذات قرب من القلب، والتصاق بالروح.

إن الانطباع الذي قدمه الشاعر محمود درويش في سيرته الذاتية عن علاقته بأمه في مرحلة الطفولة حين قال:"علاقتي مع أمي في الطفولة، كانت علاقة ملتبسة، تولد لدي شعور بأنّ أمي تكرهني كان هذا عندي عقدة، أو شبه عقدة، كنت أشعر.. ولم أعلم أنّه ليس صحيحًا إلا حين دخلت السجن للمرة الأولى، وأنا في السادسة عشرة. زارتني أمي في السجن، وحملت لي قهوة، واحتضنتني وقبلتني، فعلمت أنّ أمي لا تكرهني، وأصبحت فجأة الابن المدلل لأمي"(42).

هذا الانطباع قد وجّه شعره وشكّله على نسق خاص، منذ أن نشر باكورة أعماله إلى آخر ديوان صدر في حياته، لقد ظلت الأم رفيقة مساره الشعري، ولاشك في أن حضورها الدائم في أشعاره وحالة الحزن التي رافقته تؤكد هاجسيتها. فما الصورة التي قدمها الشاعر للمتلقي عن الأم الحقيقية في شعره؟

فالأم "حورية" من الشخصيات الأسرية التي كانت حاضرة في مواضع عدة من نصوص ابنها الشعرية الذي كانت تربطه بأمه علاقة تفيض بالحب والأحاسيس الوجدانية والمشاعر العاطفية.

عمد الشاعر إلى رسم ملامح أمه "حورية" وقسماتها بريشة الفنان البارع، متوخياً في ذلك الدقة والصدق، محاولاً تجسيدها وصبها في قالب سردي موح، يقول: في قصيدة "تعاليم حورية"(43):

فكرتُ يوماً بالرحيل، فحطّ حسّونٌ على
يدها ونام. وكان يكفي أن أداعب غصنَ
داليةٍ على خجل... لتدرك أنّ كأس نبيذيَ
امتلأت. ويكفي أن أنام مبكراً لترى
منامِيَ واضحاً، فتطيل ليلتها لتحرسه...
ويكفي أن تجيء رسالة منّي لتعرف أنّ

عنواني تغيّر، فوق قارعة السجون، وأنَّ
أيامي تُحوِّم حولها... وحيالها.

عبر الشاعر في هذا المقطع تعبيراً دقيقاً عن المشاعر والأحاسيس التي يكنها لأمه "حورية"، إذ تأخر المدلول، وتقدمت دواله الشاهدة على أبعاد شخصيتها الإنسانية، مفيداً من البنية السردية وما تزخر به من عنصر التشويق والمفاجأة، فشخصية الأم لم تتجلِ إلا بعد أن نسج السرد تفاصيل ملامحها ومعالمها، وما اتسمت به من حنو وعطف وحب لابنها، وبرز ذلك جلياً من خلال تعدد الضمائر وتداخلها: ضمير المتكلم (أنا) "فكرتُ يوماً بالرحيل"، وضمير الغائب (هو) "فحطّ حسّونٌ" و(هي) "على يدها ونام"، وهذان الضميران يمثلان بؤرة التجربة ومحورها، إلى جانب تعويل النص على عنصر الوصف الذي تضافر مع عنصر السرد، وعنصري الزمان والمكان والبنية الإيقاعية التي اتسمت بالهدوء والبطء؛ في ترسيخ المغزى الكامن الذي يسعى الشاعر إلى طرحه من وراء رسم أبعاد صورة الأم وسماتها.

ففي المقطع الأول تحدثت الذات الشاعرة/ السارد بضمير الغائب عن شخصية غير واضحة المعالم والسمات، أما في المقطع الثاني، فأماطت اللثام عن كنه ضمير الغائب، وبينت أن الشخصية التي تتحدث عنها هي شخصية أمه "حورية"، يقول(44):

"**أمي تعُدّ أصابعي العشرين عن بعد.**
تُمشّطني بخصلة شعرها الذهبيّ.
تبحث في ثيابي الداخلية عن نساء أجنبيات، وترفو جوربي المقطوع،
لم أكبر على يدها كما شئنا، أنا وهي، افترقنا عند منحدر الرُخام.

يعبر هذا النص عن أنبل معاني التحنان والمحبة، وأرق العواطف الجياشة المرتبطة بالأمومة في علاقتها بالبنوة، وما يتصل بتلك العلاقة من مشاعر إنسانية نبيلة وسامية، إنها مشاعر الحب والمودة التي تكنها الأم لابنها المنفي عن الوطن، "فالأم عند درويش تعني له الحب المفقود، والملاذ الذي يلوذ إليه عند الشعور بالحرمان أو قسوة الحياة، فيرى في استحضار صورتها خلاصا من الشعور بالوحدة والضياع والغياب"(45).

ومن الملامح التي حاول الشاعر أن يبرزها في شخصية"الأم" الحقيقية الطابعُ الصارم، والنفسيةُ الحزينة لهذه الأم، إنها الأم التي فقدت طعم الفرح؛ بسب طردها وأسرتها من قريتها "البروة" فردوسها المفقود، يقول الشاعر مخاطباً أمه(46):

لا وقت حولكِ للكلام العاطفيّ.
عجنت بالحبق الظهيرةَ كلَّها. وخبزتِ للسُمَّاقِ
عُرفَ الديك. أعرف ما يُخرّبُ قلبكِ المثقوبَ
بالطاووس، منذ طُردت ثانيةً من الفردوس.

النظرة المتفحصة إلى ملامح شخصية الأم كما تتبدى في هذا المقطع، تسفر عن شخصية صارمة ، تميل إلى الوحدة، ولا تسمح بتنامي الحوار العاطفي مع الآخرين،"لا وقت حولك للكلام العاطفي"، بيد أن ثمة أمومة حانية تقبع خلف هذه الصرامة.

أعاد الشاعر في هذا المقطع تشكيل ملامح شخصية الأم وأبعادها شعراً بعد أن كان قد رسم معالم تلك الشخصية بأسلوب النثر، إذ قال عن والدته:"كانت جميلة وقاسية تنشر الرعب في البيت، وحين تكون وحدها تبكي بلا مناسبة، وبلا انقطاع. وتهدهد أختي الصغيرة بأغان شجية تذكر فيها سوء الطالع والحنين إلى أشياء ضائعة كأنها مزامير بدائية. لم تذهب يوماً إلى أعراس القرية، ولكنها أول من يذهب إلى جنازة في القرية والقرى المجاورة، عاجزة عن الفرح، قادرة على البكاء"(47).

انعكس الواقع الفلسطيني المؤلم في معالم شخصية "الأم" وأبعادها، فالخروج من الفردوس المفقود أورثها الحزن المأساوي، وأسهم في تشكيل ملامح الأسى في نفسها، وغيّر عالمها، فكان من الطبيعي أن يحل هذا الصمت المترع بالحزن محل واقع حياتها اليومي، فعكست شخصيتها بذلك البعد الفردي والجمعي، فالأم هي فلسطين: بنباتها وزهورها وعادتها(الحبق، السماق، عرف الديك)، وهي رموز شكلت عناصر شخصية الإنسان العربي في فلسطين وجوهرها.

تكشفت صورة "الأم" وأبعادها عن حرص شديد على ابنها الذي تجلي في تقديم الإشارات والنصائح والتوجيهات له، فقلب الأم ينبض دوماً نحو ولدها، إنه قلب الأم الرحيم الرءوم الذي لا يعرف الكلل ولا الملل، يقول الشاعر في قصيدة" تعاليم حورية"(48):

لا نلتقي إلا وداعاً عند مفترق الحديث.
تقول لي مثلا: تزوّج أية امرأة منَ
الغرباء،أجمل من بنات الحي..لكن، لا
تصدق أية امرأة سوايَ.. ولا تصدقْ
ذكرياتك دائما..لا تحترق لتضيء أمكَ،
تلك مهنتها الجميلة..لا تحن إلى مواعيد
الندى..كن واقعيا كالسماء..ولا تحنَّ
إلى عباءة جدك السوداء، أو رشواتِ
جدتك الكثيرة، وانطلق كالمهر في الدنيا.
وكن من أنت حيث تكون.واحملْ
عبء قلبك وحده...وارجع إذا
اتسعت بلادك للبلاد وغيَّرت أحوالها...

اكتملت صورة الأم في نهاية هذا المشهد من خلال مجموعة من الوصايا تسعي في مجملها الى تحرير ابنها من قيود كثيرة، تشكل عائقا أمام حركته:قيود الزواج، قيود الأم، قيود الضعف الرومانسي، قيود الماضي، قيود التردد، القيود التي تمنع تحقيق الذات. ويبدو أنه كان لهذه الوصايا وقع طيب في قلب ابنها، فغدت له منارة يهتدي بها في بلاد المنافي والغربة، وروحاً لأمثاله من المقيمين على جمر مبادئهم وهويتهم، ونوراً يضيء على وطن يتشظى بين احتلال وانقسام.

وعلى الرغم من أن الذات المتلقية قد تشعر بأن بعض هذه التعاليم قد صبغت شخصيته "الأم" حورية بطابع التسلط والسطوة التي مازالت راسخة في وعي الشاعر طفلاً:" لا تصدق أية امرأة سوايَ"، إنها تضع نفسها في مواجهة ذلك كله بوصفها مصدر الصدق الذي لا ينبغي لامرأة غيرها أن تصل الى مستواه،(49)؛ فإن المتلقي في الوقت ذاته يشعر بمدى حرصها الشديد على توجيه سلوك الابن الوجهة السليمة من منطلق دورها التربوي، فالولد مهما كبر وتقدم في السن يظل في نظر أمه طفلاً.

والقارئ لكثير من نصوص الشاعر، يكتشف أن الشاعر محمود درويش كان على علاقة خاصة بأمه، إنه يحبها حباً جماً، يخاطبها وتخاطبه، لذا فهو يختتم قصيدته بالتعبير بصدق وأمانة عن تلك العلاقة بقوله(50):

أمي تضيء نجوم كنعان الأخيرةَ
حول مرآتي،
وترمي، في قصيدتيَ الأخيرةِ، شالَها!

عبرت هذه الأسطر عن عاطفة الحب والاعتزاز والمودة التي يكنها الشاعر لأمه، إنها الأم" حورية" التي تركت وصاياها وتعاليمها؛ لتضيء نجوم كنعان حول مرآة ولدها محمود، وترمي في قصيدته الأخيرة شالها، لقد أضفى الشاعر على ملامح صورة والدته أبعاداً تراثية وطنية تومئ إلى طابع التقديس والطهارة والنقاء والوضاءة، وتوسل في ذلك بالانزياحات الأسلوبية؛ والرموز الفنية؛ لتجسيد مشاعر المحبة والتقدير لأمه، فالأم تضيء، ونجوم كنعان، فدال "كنعان" ينفتح على فضاءات مترعة بالإيحاءات، فهو بالنسبة للشاعر رمز للمكان لفلسطين، وحكاية تاريخ شعب، والمرآة" هي رمز للحقيقة: حقيقة الشاعر، وحقيقة شعبه، وحقيقة قضيته، وحقيقة وطنه، وهكذا تجلت علاقته بوالدته، إنها علاقة حنان وحرية ووطن ونور.

اللافت للنظر أن هذه الأسطر الأربعة التي ختمت بها القصيدة جاءت بمثابة ومضة شعرية، ودفقة شعورية سريعة، تميزت بالكثافة والتركيز، تناسبت مع تجربة الشاعر الروحية، وعلاقته الحميمة بأمه، حيث إنه قال بوساطتها أشياء كثيرة بعبارات موجزة مكثفة.

ولا يدع الشاعر مناسبة تمر دون أن يظهر حبه لأمه، وتعلقه بها، ويتجلى ذلك في مقارنة حبها له بحبه لامرأة أجنبية، يقول في قصيدة"ليلة البوم" (51):

ربما أتغير في اسمي وأختار ألفاظ أمي وعاداتها مثلما ينبغي
أن تكون: كأن تستطيع مُداعبتي
كلما مسّ ملحٌ دمي، وكأن تستطيع معالجتي كلما عَضَّني بلبلٌ في فمي!

تجلت في هذه الأسطر ملامح صورة "الأم" وأبعادها؛ بوصفها منبع ثقافة الشاعر وأصالته المتمثلة في تمسكه بألفاظها وعاداتها، فالأم أقوى من الأمس، وأقوى من الأجنبية

العابرة؛ لأنها القادرة على إدخال الفرح والسعادة إلى قلب "الابن" أكثر من غيرها من النساء إذا ما انتابته المصائب، وهي القادرة على معالجة ذاته وشفائه مما يعانيه من أحزان وآلام، وقد توسل الشاعر الرمز الفني للتعبير عن موقفه ورؤيته الإنسانية، فالبلبل هنا يرمز للمرأة الأجنبية التي تغدو قبلتها في الفم مصدر ألم لا فرح.

ب . صورة الأم الجمعية:

لم يقف الشاعر في رسمه لصورة "الأم" عند الأم الحقيقية، وإنما امتدت دلالتها واتسع معناها لتشمل أم الجميع، الأم التي ترمز إلى كل أم فلسطينية.

ومن المعروف في علم النقد أن الدلالة الواحدة قد تحمل معنيين: أحدهما يعبر عن مستوى مباشر، والآخر يحمل أبعاداً رمزية، وهذا الأسلوب من التعبير محبب لدى الشاعر محمود درويش، إذ يقول:" أريد أن ينظر إليّ من دون أن أحمّل أعباء رمزية مبالغًا فيها. ولكن يشرفني أن ينظر إلى صوتي الشخصي وكأنه أكثر من صوت. أو أنّ "أناي" الشعرية لا تمثل ذاتي فقط، وإنما الذات الجماعية أيضًا"(52).

فالأم عند الشاعر هي الأم الحقيقية التي امتدت لتشمل كل الأمهات الفلسطينيات، فهي أحياناً تمثل له صورة الأم الفلسطينية التي أمضت حياتها تنتظر عودة أبنائها من الغربة وبلاد الشتات والمنافي، يقول في قصيدة "انتظار العائدين" مناجياً الأم الفلسطينية(53):

يا أُمنا انتظري أمام الباب. إنا عائدون
...ماذا طبخت لنا؟ فإنا عائدون.
نهبوا خوابي الزيت يا أمي، وأكياس الطحين
هاتي بقول الحقل! هاتي العشب! إنا عائدون!

وهي أحياناً أخرى"الأم" التي تحب ابنها الذي فقدته، رحل عنها وعاد شهيداً، إنها أم الذين سقطوا من أجل أن ينهض الوطن ويبقى مصوناً،عزيزاً، كريماً، حراً، قوياً، يقول في قصيدة "وعاد في كفن" على لسان الأم التي تخاطب الذات المتلقية(54):

أما رأيتم شارداً مسافراً لا يحسن السفر!
راح بلا زوَّادة، مَنْ يطعم الفتى
إن جاع في طريقه؟

من يرحم الغريب؟
قلبي عليه من غوائل الدروب!
قلبي عليك يا فتى.. يا ولداه!

يصور الشاعر في هذا المقطع إحساس الأم ولهفتها على فقد ابنها الشهيد الذي عاد إليها في كفن، إنها تناجيه في بساطة وانسياب وتلقائية تحمل أسمى عواطف الأمومة الإنسانية، وتبدي الصبر والثبات على فقده في سبيل الوطن، بعيداً عن الجزع والهلع، دأبها في ذلك دأب الأمهات في فلسطين.

توسل الشاعر للتعبير عن مشاعر الفقد والمرارة وسائل تعبيرية متعددة منها: أسلوب الاستفهام الذي تجاوز معناه النحوي اللغوي العادي إلى معان أخرى أبعد، واكتسب من خلالها دلالات جديدة في سياق تجربة الشاعر الإنسانية، فالإلحاح على استخدام أسلوب الاستفهام في موقف الفقد والضياع يعكس توتر الذات الشاعرة وحيرتها وقلقها واضطرابها، ويجسد ما يعتصر قلبها من مشاعر مشحونة بالألم والحسرة والتفجع. وأدت بعض التراكيب اللغوية دورها في تكثيف أحاسيس الأم بالفقد من مثل: "يا ولداه" وهو تركيب شائع يجرى على ألسنة الأمهات يشي بالتفجع والتوجع على فقد الولد. ولا تضطلع البنى اللغوية السابقة بهذا العبء وحدها، وإنما تشاركها في ذلك صيغة الالتفات، أي:"الانتقال في الخطاب من ضمير الغائب" عليهِ" إلى ضمير الخطاب" عليكَ" التي لعبت دوراً نشطاً في تعميق الإحساس بغياب الآخر، وتعظيم شأنه وإبراز مكانته في نفس المتلقي.

مثّلت صورة "الأم الجمعية" في شعر محمود درويش عاملاً من عوامل نشر المحبة والوئام بين الأخوة، مستمداً تجربته من الواقع المعيش للإنسان الفلسطيني، فحين جرى الاقتتال بين الأخوة الفلسطينيين، طلب الشاعر من أخيه أن يلقي السلاح بعيداً، ودعاه إلى كوخ أمه؛ ليأكلا معاً طعاماً من صنع أمه؛ ليصبحا متحابين متمسكين بالوحدة في ظل الأم الفلسطينية "الجمعية"؛ بوصفها مرفأ الأمن والأمان، يقول في قصيدة "يعانق قاتله"(55):

...تعال إلى كوخ أمي لتطبخ من أجلك الفول. ماذا تقولُ؟ وماذا تقولُ؟ مللتَ عناقي ورائحتي. هل تعبت من الخوف فيّ؟ إذن،إرْمِ هذا المسدسَ في النهر!... ستقتلني كي يعود العدو الى بيته / بيتنا وتعودَ الى لعبة الكهف، ماذا صنعتَ بقهوة أمي وأمك؟ ماذا جنيتُ لتغتالني يا أخي. لن أحل وثاق العناق ولن أترككْ!".

فالأم في هذا النص هي رمز الوحدة والتآلف والمحبة، رمز حرية أمة عربية فلسطينية، ما زالت تنتابها الانقسامات الطائفية والحزبية والاقتتال الداخلي بين الأخوة الذي يحول دون وحدتها وبعثها وانبثاقها.

تجلت في هذا النص دلالات متنوعة شكلتها التحولات الدرامية في صورة سردية تمثلت في الحوار الدرامي بين الشاعر وأخيه، بالإضافة إلى توظيف الأساليب الإنشائية لاسيما أسلوب الأمر: تعال، ارم، وتكرار أسلوب الاستفهام: ماذا تقولُ؟ وماذا تقولُ؟ هل تعبت؟، ماذا صنعتَ ؟ ماذا جنيتُ؟، الذي ولد لوناً من الحركة والحياة شحن النص بمزيد من الإيحاءات، ومنحه عمقاً وحيوية وسعة دلالة، وكان لهذه الحركة دور مهم في تحقيق الاستجابة الانفعالية لدى الذات المتلقية.

ج . صورة الأم الأرض والوطن:

شكل التوحد والربط بين الأم والأرض مظهراً بارزاً لدى الشعراء العرب المحدثين؛ بوصف الأم صنواً للأرض وندّاً لها، وشبيهاً بها، فكما أن الأرض تنبت الحياة، وتوفر سبل العيش للإنسان، كذلك الأم، من حوضها تتدفق الحياة وتستمر، فهي صانعتها ورمز تجددها (56)، لما بينهما من وجوه تشابه والتقاء، فكلتاهما رمز للخصب والنماء، كما أنهما رمز للحياة والعطاء المتواصل، يقول الشاعر وقد جعل من دال الأرض رمزاً للأم، يقول في قصيدة" لديني... لديني لأعرف"(57):

"لديني ... لديني لأعرف في أي أرضٍ أموت وفي أي أرضٍ سأبعث حياً سلامٌ عليك وأنت تعدّين نار الصّباح، سلامٌ عليك...سلامٌ عليك. أما آن لي أن أقدّم بعض الهدايا إليك: أما آن لي أن أعود إليك؟... لديني لأشرب منك حليب البلاد وأبقى صبيّاً على ساعديك وأبقى صبياً إلى أبد الآبدينَ رأيتُ كثيراً يَ أمي رأيت لديني لأبقى على راحتيك".

جسدت هذه الأسطر علاقة الأم بالأرض، فالأرض هي التي تملك وحدها القدرة على الولادة وإعطاء صفة الحياة ، وتأخذ الأرض من الأم صفة "الأمومة" ، وذلك من الدلالة التي ولدها الفعل المتكرر"لديني" و"وأنت تعدين نار الصباح"و" حليب البلاد"، فقد جعلت الأرض مرادفاً للأم.

ويجيء تكرار الفعل" لديني" في المقطع السابق أربع مرات؛ ليكشف عن شدة ارتباط الشاعر بالأرض وظهوره وخروجه من رحمها، وبذلك "تكتمل صفة الأمومة للأرض ، فهي تلد، وتشعل النار فى الصباح، وتدر الحليب، وتحمل على راحتها، وبهذه صفات الأمومة استطاع الشاعر أن يجعل من أرضه أما تتمتع بكل صفات الأمومة، ويصبح دال الأم عنده معادلاً موضوعاً للأرض"(58).

وفي غمرة الاغتراب والنفي والتشتت يستبد بالشاعر الحنين والاشتياق إلى أمه الوطن والأرض ، وأصدقاء الطفولة وأهله وماضيه، يقول في قصيدة"إلى أمى"(59):

أحنّ إلى خبز أمي
وقهوة أمي
ولمسة أمي..
وتكبر فيّ الطفولةُ
يوماً على صدر يومِ
وأعشق عمري لأني
إذا مُتُّ، أخجل من دمع أمي!

يخاطب الشاعر فى هذه الأسطر الأم / الأرض ويعبر لها عن مشاعر الشوق والحنين إلى ربوعها والتمتع بخيراتها، إنه يتوق إلى الأشياء المادية التي تربطه بها، ذلك أن لخبز الأم طعماً خاصاً، ولقهوتها مذاقاً مميزاً، حتى لمسة الأم لها شكل آخر، كل ما في الطفولة يسترجعه الشاعر بدقة، وهي ذكريات لا تنسى مهما تقدم به العمر، فالأم هي موئل الحنين وموطن الشوق، ومرفأ الخلاص، والملاذ الآمن الذي يلوذ به الإنسان من قسوة الغربة ووحشة التيه والضياع والتشرد والمنفي.

لقد عبر الشاعر عن اشتياقه لبلده وطفولته وماضيه كله مختزلاً تعبيره بكلمة"الأم" أي إنه استعار كلمة الأم استعارة لفظية ليعبر من خلالها وباختصار عن كل ما يلج في داخله من موجة الحنين الهائجة... فالحنين إلى الأم يعني الحنين إلى الوطن والأم والحبيبة والأصدقاء والطفولة".

ليس ثمة شك في أن ما يلقاه الإنسان في بلاد التشتت والضياع والمنافي من غربة وبعد عن الوطن والأحباب، يولد الشعور باليأس من العودة إلى حضن الوطن؛ الأمر الذي يدفعه إلى أن يتمني العودة إلى حضن وطنه وأرضه، وأن يدفن فى ثراها، يقول(60) :

خذيني، إذا عدتُ يوماً وشاحاً لهُدبكْ
وغطّي عظامي بعشبِ تعمّد من طُهرِ كعبكْ
وشُدّي وثاقي ..
بخصلةِ شَعر ..بخيطٍ يلوّحُ في ذيلِ ثوبكْ..
عساني أصيرُ إلهاً
إلهاً أصير .. إذا ما لمستُ قرارةَ قلبكْ !

يشعر القارئ لهذه الأسطر بأن الشاعر تربطه بالأرض علاقة حب صوفي، إنه يستمد مكانته وأهميته من كون الأرض وطناً يناضل في سبيله، دون أن يفقد أمل الحلم بالانتصار، بالرغم من المجازر اليومية التي ترتكب في حق الطفولة والإنسانية.

إن ثمة ترابطاً روحياً عميقاً بين الشاعر ومن يتوجه إليه بهذا الخطاب، وهو الأم الأرض والوطن، وفيها يعبر الشاعر عن مدى اشتياقه لأمه أرضه، إنه يتمني أن يعود إلى أمه وطنه حياً، فإن لم يُقدّر له ذلك، فإنه يتمني أن يعود إليها، وهو مسجّى، وأن يلف عشب وطنه الطاهر جسده بوشاح الشهادة؛ لأن المبعد عن وطنه، حينما يموت يعود شهيداً، إنه من شدة حنينه واشتياقه لأرضه، أراد أن يعانق جسده تراب وطنه، معبراً عن فرحته وحبوره بهذا اللقاء، وإن كان جسداً بلا روح.

وكثيراً ما كانت صورة " الأم" تمثل لدى الشاعر الوجه الآخر للأرض، فالوطن والأم كائنان حيّان متلازمان، يستحيل الفصل بينهما، إنهما يمدان الابن بالقوة والقدرة على التحليق نحو الحرية، يقول(61):

هرمتُ ، فردي نجوم الطفولة
حتى أشارك صغار العصافير
درب الرجوع.. لعُشِّ انتظارِك !

يدرك المتلقي أن الشاعر في هذا المقطع يعود الى واقعه وغربته وشبابه بعد أن عاش في القصيدة أمومته وذكريات طفولته، فالشاعر"يقرّ بواقعه وما جنى عليه حتى أصبح يشعر ذاته هرمًا. وقد نلحظ بعض العتاب؛ لأنه يطلب منها أن تعيد نور طفولته حتى يعود إلى بيته، إلى العش الدافئ، على عكس المكان الذي يقبع فيه وهو السجن"(62).

وإذا ما أمعن المرء في تأمل صورة "الأم" كما تبدت في هذا المجتزأ، اكتشف أنها سمت وعلت، فأصبحت الوطن بدفئه وكرامته وعزته وحبه الكبير، فالشاعر درويش يربط نضال صغار العصافير بدرب رجوعهم إلى عش الكرامة والإباء، فالأم هي مصدر النور الذي يمده بنجوم الطفولة، دعاؤها يرده إلى شبابه؛ ليحلق نحو الضياء .

ولا شك أنه إذا اشتدت بالإنسان الغريب المنفي عن أرضه المصائب، وحلت بساحته الشدائد، فإنه لا يجد موئلاً يأوي إليه سوى أمه الوطن والأرض، فالأم هي الموئل الذي يلوذ به الإنسان عندما تحل بساحته الهموم والأحزان، فهي الصدر الحنون الذي يخفف عنه الآلام، ويجد في محرابها الأنس من الشعور بالوحشة والضياع، فالشاعر الفلسطيني يتخذ من الحنين في الغربة وسيلة للحلم بالوطن المفقود(63). وهذا ما حدث بالفعل مع الشاعر محمود درويش في غربته داخل الوطن وخارجه، فهو يعبر عن غربته بغربة كل مَنْ فقد الأم والوطن، وما أصعبهما إن اجتمعا معاً!، يقول الشاعر في قصيدة" رسالة من المنفى"(64):

الليلُ – يا أمّاه – ذئبٌ جائعٌ سفّاحْ
يطاردُ الغريبَ أينما مضى ..
ويفتحُ الآفاقَ للأشباحْ
وغابةُ الصفصافِ لم تزلْ تعانقُ الرياحْ
ماذا جنينا نحنُ يا أماه؟
حتّى نموتَ مرّتين
فمرّةً نموتُ في الحياة
ومرةً نموتُ عندَ الموتْ !

يتوجه الشاعر في هذه الأسطر إلى أمه الأرض يناجيها، يشكو إليها همومه وأحزانه، ويبثها مرارة الغربة ووطأة المنفى، فالأم هي أقرب الناس إلى قلبه، وأكثرهم إحساساً بآلامه

ومواجعه؛ هذا البوح المفعم بالشجو، وهذه المناجاة المسربلة بالعذاب والعذوبة، تعود بالشاعر إلى أيام الطفولة، إلى تلك اللحظة التي فارق فيها الأم فراقاً طال أمده. إنه يعبر من خلال استحضار صورتها عن تلاحم العلاقة بين المرأة والوطن، فالأرض– أرض فلسطين– هي قضية الشاعر ولغته، وهي رؤيته ومحور مشروعه الشعري، هي أمه التي يهون الموت من أجلها مرات ومرات.

وتوسل الشاعر للتعبير عن مشاعر الحنين إلى أمه، وحاجته إلى حنانها وهو في الغربة، بالصور الفنية الموحية القادرة على إثارة فيض من الدلالات الشعورية واللاشعورية، وإيقاظها الدفين من مشاعرنا وأحاسيسنا المريرة، وقد جاءت تلك الصور متلائمة مع الجو النفسي في المقطع، ومع حالة الشاعر النفسية، وتعمق في النفوس الإحساس بالغربة والحنين إلى الوطن، إلى جانب التعويل على تقنية تكرار أسلوب النداء"يا أماه"؛ الذي يكشف عن إحساس الذات الشاعرة بالوحدة والفراغ، وحاجتها الى من يشاركها أحزانها ويخرجها من أزمتها، واختار أن يتوجه بندائه الى الأم؛ لأنها مصدر الحب والأمن والحنان، وأدت تقنية الاعتراض- يا أمّاهُ - أيضا دوراً مهماً في إبراز حاجة الشاعر إلى الأنس في زمن الوحشة والغربة، وإلى لفت انتباه الذات المتلقية وتوجيه عنايتها الى الدلالة المحددة والمغزى الكامن وراء هذا النداء.

من يتأمل نصوص محمود درويش الشعرية، يجد أن كثيراً منها يدور حول قضية أرضه ووطنه، فالأرض هي الأم الحنون، يقول في قصيدة " تلك صورتها وهذا انتحار العاشق" وقد مزج بين الأم والوطن والطبيعة(65) :

الياسمين اسم لأمي، قهوة الصبح.
والياسمين اسم لأمي. باقة الزبد.
أصواتُ البواخر حين تمخرني،
وأسماء السبايا والضحايا
أسماء أمي.
...قال المهاجر للوطن لا تنسني
والياسمين اسم لأمي. والزمنْ
عشب على الجدران

ربط الشاعر في هذا المقطع بين الأرض– وما تحتويه من نباتات وأزهار وأغان، وجبال وخريف، وقطن، وبحار وبواخر وشهداء ومعتقلين، كلها معطيات طبيعة فلسطين وبين الأم، فالياسمين رمز للأم الأرض، رمز لتراب فلسطين.

تعد صورة الأم من أهم الرموز التي وظّفها الشاعر في شعره"واستطاع أن ينتزع هذه الشخصية من إطارها الواقعي إلى إطار رمزي جديد قام بابتكاره وخلقه، فجردها من بعض صفاتها الآدمية وجعلها رمزًا لأرضه"(66).

وكثيراً ما تتحد صورة الأم بالأرض وتذوب فيها، فالذات الشاعرة تتوق إلى التواصل والالتقاء بالأم الأرض في فصل الربيع موسم الخصب والعطاء، حتى تتمكن من التمتع بجمالها وخيراتها، بيد أن المحتل الغاصب يحول دون ذلك اللقاء، يقول الشاعر مناجياً أمه الأرض (67):

قالوا لقاؤك في الربيع وجاء يا أمي الربيعُ
لا فرق غير اللون يا أماه في الكون الوسيعُ

يعبر الشاعر في هذين البيتين عن حسرته وحزنه لعدم تحقق أمله في لقاء أمه الأرض، وقد استثمر في ذلك بعض التشكيلات اللغوية المعتمدة على أسلوبي النداء والاعتراض؛ لإضفاء جملة من الدلالات الموحية على فضاء النص الشعري؛" فالجملة الاعتراضية تقوي الكلام، وتزيد من تماسكه في الوقت الذي تفصل فيه بين ركنين متلازمين، وهنا – بالضبط – تكمن المفارقة، فهي تدعم الكلام في الوقت الذي تجعله يبدو كأنه مفكك..."(68).

وفي رسم بعض ملامح الأم يعمد الشاعر إلى استخدام تقنية الرمز؛ ليعبر عن عروبة مدينة "القدس" في ظل الهجمة الصهيونية التي ترمي إلى تهويدها، وعزلها عن أخواتها من مدن فلسطين، يقول في قصيدة"المدينة المحتلة" (69):

الطفلة احترقتْ أمّها أمامها ..
احترقت كالمساءْ .
وعلّموها: يصير اسمُها في السّنة القادمهْ
سيدة الشهداءْ
وسوف تأتي إليها إذا وافق الأنبياء!

صورت هذه الأسطر مأساة مدينة القدس من خلال استثمار تقنية الرمز الذي امتيحت مادته من واقع القضية الفلسطينية، فدال "الطفلة" يرمز لمدينة القدس، ودال "الأم" يرمز لفلسطين الأرض والوطن، واحتراق"الأم" يعني الاحتلال الصهيوني للمدن الفلسطينية، ولا يخفى أن ثمة علاقة حميمة بين كل من "الأم" و"الطفلة"، فكلتاهما مترابطة تكمل إحداهما الأخرى.

المتأمل في الرمز الذي وظفه الشاعر في هذا المقطع، يكتشف أن الرموز أو الصور التي استعملها الشاعر هي رموز شفافة موحية تتكشف مدلولاتها بسهولة، ولا تحتاج إلى وقفة طويلة وتحليل عميق للوصول إلى ما توحي به من مضامين ومشاعر، وهذا يتناسب مع القضية التي يتغيا الشاعر التعبير عنها، كما أن لفظ "المساء" يحمل دلالات مترعة بالإيحاءات، فظلمة المساء تعادل نفسياً الظلام والمرارة الذي تبع احتراق "الأم"، إلى جانب أنه يوحي بالغياب المؤقت القصير، فغياب "الأم" فلسطين لن يطول، وأنها ستعود (70).

تضافرت عناصر التعبير الشعري من أسلوب سردي، وصور فنية، ولغة حزينة موحية ، ووحدات صوتية تمثلت في تكرار حروف المد؛ لتؤدي دوراً محورياً في تعميق المعنى الشعري، وتجسيد جماليات التشكيل الشعري، ذلك أن تلك العناصر إذا ما استثمرت بشكل جمالي منسجم، واتساق فكري مقنع، فإنها تسهم في الارتقاء بالخطاب الشعري وتعمق دلالاته وتقوي تأثيرها في المتلقي.

تجلت في صورة "الأم" الأرض الوطن دلالةُ البعث والتجدد، بعث الحياة في "أنا" الشاعر، ففي قصيدة "ولادة" التي يحمل عنوانها نفسه مضمون الخلق والبعث والتجدد يعبر الشاعر عن دلالة البعث والتجدد مناجياً أمه، فيقول(71):

– يا أمي
جاوزت العشرين
فدعي الهمَّ ونامي!
إن قصفت عاصفة
في تشرين..
ثالثهم..
فجذور التين

راسخة في الصخر.. وفي الطين
تعطيكِ غصوناً أخرى..
وغصون!

حاول الشاعر في هذا المقطع أن يوظف الرمز الأسطوري للدلالة على البعث والتجدد والحياة بعد الموت؛ لتجسيد رؤيته الإنسانية، فالإشارة إلى الرمز لم تأت مباشرة، وإنما تدركها الذات المتلقية من خلال ما يكتنزه النص من إيماءات وإيحاءاته خفية.

تشير الأسطر السابقة إلى أن الموت عند الفلسطيني يعادل الحياة، فمن الموت تولد الحياة المتجددة "موت جديد" الموت الذي يعني التجدد والبداية، وليس العدم والنهاية، فالولادة هنا انبعاث وتجدد، إنها رمز لانبعاث الكيان الفلسطيني من الأرض/ الأم القادرة على التجدد والحياة، برغم كل أشكال القتل وبشاعتها، وتعدد أصنافها والتي يمارسها المحتل، فالفلسطيني الذي يقتل كل يوم، وتسلب أرضه يخلق من جديد في بداية دائمة مستمرة(72).

د. الأم التراثية:

حاول الشاعر محمود درويش أن يستحضر – وهو يرسم لوحات فنية لصورة أمه" حورية" –عدداً من الشخصيات التراثية التي تجسدت فيها صورة الأم التي تماهت واندمجت مع موقفه من أمه، مضفياً على ملامح تلك الأمهات سمات وأبعاداً ذات طابع تراثي ديني، ففي قصيدة "تعاليم حورية" استدعى شخصية السيدة "هاجر" وابنها إسماعيل – عليهما السلام– ، يقول متحدثاً عن ملامح صورة أمه (73):

هي أختُ هاجر. أختها من أمها. تبكي
مع النايات موتى لم يموتوا. لا مقابر حول
خيمتها لتعرف كيف تنفتح السماء، ولا
ترى الصحراء خلف أصابعي لترى حديقتها
على وجه السراب، فيركض الزّمن القديمُ
بها إلى عبثٍ ضروريّ.

اكتسبت شخصية"الأم" في المقطع السابق بعداً دينياً تاريخياً،من خلال استدعاء الشاعر شخصيات تراثية من عمق الموروث الديني مثل: شخصية السيدة "هاجر" التي تقابل عنده شخصية الأم "حورية"، أما شخصية ابنها "إسماعيل" فهي تقابل شخصية الابن الطفل "محمود"، وغدت شخصيتا"الأم" في النص الشعري تتفقان في جملة من القيم الخلقية التي منها: الصبر والرحمة، والقدرة على الاحتمال، والبحث عن الحياة، ومقاومة الموت، والسعي الحثيث من أجل البحث عن الحياة والاستمرار.

ومن العناصر التي ساهمت في تشكيل اللوحة التي رسمها الشاعر" لأمه" تعويله على إعادة صياغة عناصر الشخصية التراثية من خلال إجراء تغيّير وتحوير على ملامحها وأبعادها، فإذا كانت معجزة "هاجر" تتجلى في تفجر الماء بين أصابع ابنها "إسماعيل"، فإن"محمود" الجديد لا تتحقق له هذه المعجزة، ولم يتفجر الماء بين أصابعه؛ لأن الظروف مختلفة، فالطفل محمود يعيش واقعاً أليماً بسبب احتلال وطنه من قبل آخرين غرباء طردوه من أرضه، ودمروا قريته، وأحالوا حياته وحياة أبناء وطنه إلى واقع مأساوي، يستحيل معه أن تقع المعجزات(74).

ومن الأمهات التي استدعاها الشاعر من التراث الديني شخصية السيدة مريم وابنها عيسى –عليهما السلام –، وأسقط عليهما أبعاداً من تجربته الذاتية المعاصرة، ففي قصيدة"تعاليم حورية"ذاتها يوجه السارد / الشاعر حديثه إلى أمه في صورة تساؤل عن حادثة رحيل الأسرة من قرية الشاعر "البروة" إلى مخيمات اللجوء في لبنان، يقول وهو يستحضر ذكريات اللجوء التي تترسم ملامح أمه (75):

هل تتذكرين
طريق هجرتنا إلى لبنان، حيث نسيتني
ونسيتِ كيسَ الخبز (كان الخبز قمحياً)
ولم أصرخ لئلا أوقظ الحراس. حطّتني
على كتفَيك رائحة الندى. يا ظبيَةً فقدتْ هناك كِناسَها وغزالها...

جمعت الصورة التي رَسمت معالم شخصية"الأم" "حورية" بين الهم الفردي والجمعي للإنسان العربي في فلسطين، لاسيما حادثة الخروج من القرية، والرحيل إلى بلاد المنافي والغربة في لبنان، إثر سقوط فلسطين في يد المغتصبين سنة 1948م، وقد تجلت في هذا

المشهد صورة الأم الرءوم التي تحنو على ولدها، وتعطف عليه، وتخاف أن يمسه سوء، مثلها في تلك الظروف المأساوية التي مر بها الشعب الفلسطيني مثل جميع الأمهات الفلسطينيات، وقد تكونت عناصر الصورة من طفل خائف تحمله أمه في طريقها مهاجرة إلى لبنان بعد سقوط وطنها وابنها.

وفي سبيل تعميق أبعاد هذه الصورة ومعالمها في نفس الذات المتلقية، قام الشاعر/ السارد باستدعاء صورة السيدة "مريم" وابنها "عيسى" – عليهما السلام–، بما تحمله من أبعاد دينية وإنسانية تنسجم مع الحالة التي يروم الشاعر إبراز عناصرها وقسماتها.

ولم يقف الشاعر– في رسمه لأبعاد هاتين الصورتين– عند حد التقابل بين عناصرهما: فصورة السيدة "مريم" وابنها "عيسى" تقابلها صورة أم السارد / الشاعر"حورية" وابنها الطفل/ الشاعر، وإنما عمد إلى تحوير أبعاد الصورة ومعالمها بما يتوافق وتجربته الذاتية، ورؤيته الإنسانية، فإذا كان كلام "عيسى"–عليه السلام– وهو في المهد المعجزة التي وهبت له الحياة، ومنحته الاستمرار في أداء رسالته، فإن معجزة الطفل الابن تتمثل في السكوت وعدم الكلام؛ لأن الكلام غدا طريقاً يفضي إلى الهلاك والموت على يد الجنود الصهاينة. فضلاً عن اعتماد الشاعر في بناء خطابه الشعري على تقنية الانزياح الأسلوبي، فاستخدم الدوال الموحية مثل:" رائحة الندى والظبية، والكناس، والغزالة"، وهي دوال تزخر بمعان ودلالات تنم على استمرار التوحد والاندغام بين الأم وطفلها، واستحالة الفصل بينهما.

ومن الشخصيات التراثية التي استحضرها الشاعر محمود درويش شخصية "الأم " في تجربة الشاعر أبي فراس الحمداني، الذي كتب وهو في السجن عدداً من القصائد توجه فيها بالخطاب إلى أمه، ومن تلك القصائد قصيدته" يا أم الأسير"، التي تعد من أجمل قصائد الأبناء للأمهات في الشعر العربي، يقول(76):

أيا أم الأسير، سقاك غيث بكره منك ما لقي الأسير
أيا أم الأسير، لمن تُربّى وقد مت، الذوائب والشعور
إذا ابنك سار في بر وبحر فمن يدعو له أو يستجير

أما الشاعر محمود درويش، فيقول في قصيدته" من روميات أبى فراس الحمداني"(77):

ثمة أهل يزورونني

غدا في خميس الزيارات. ثمة ظل
لنا في الممر. وشمس لنا في سلال
الفواكه. ثمة أم تعاتب سجاننا:
لماذا أرقْت على العشب قهوتنا يا شقي ؟

تكشفت ملامح صورة"الأم" في هذه الأسطر من خلال تعلقها الشديد بابنها، ومواظبتها على مواعيد زيارته، وهو في المعتقل، وتشوقها إلى لقائه، وحنينها إليه، فتحولت بذلك إلى رمز للأم الفلسطينية التي تقف إلى جانب ابنها وهو في محنة السجن.

صاغ الشاعر تجربتة الشعورية بأساليب تعبيرية تفيض بالدلالات الموحية، إذ انفتحت فيها الدلالة إلي فضاءات متعددة، فـ"القهوة" رمز للأصالة والتراث، و"العشب" رمز العطاء والخصب المكاني، والشمس التي في السلال رمز للبرتقال الذي يومئ بدوره إلي فلسطين /الوطن، والتعلق بها والشوق والحنين إليها، و"الشقي" رمز للمحتل الظالم المستبد المجرد من القيم الإنسانية.

أدى أسلوب الاستفهام أيضاً دوراً مهماً في تجسيد تجربة الشاعر، فالاستفهام الذي ورد على لسان"الأم" والموجه إلى السجان تجاوز معناه النحوي اللغوي العادي إلى معان أخرى أبعد، اكتسب من خلالها دلالات جديدة في سياق تجربة الشاعر الإنسانية، إنه يعكس توتر الأم وتعجبها واستغرابها وسخريتها من تصرف السجان الشائن الذي سكب القهوة – رمز حسن الضيافة–، وبذلك ساهم هذا الأسلوب في تعميق المجرى الدلالي، وتركيز التجربة الشعورية، فضلاً عن مساهمته في نفي الرتابة عن الأسطر، وإكسابها غنائية عالية، وتوفير عنصر التأثير في الذات المتلقية.

إن مجرد رفض المحتل لعرض الأم بقبول القهوة– عربون التعايش – أوقعه في الشقاء، فهو شقي تعس غير سعيد، والسجان تعس على الحقيقة، في محنة دائمة؛ لأنه لا يعلم ضلال فعلته(78).

ويلحظ المتلقي أن استدعاء شخصية"الأم" وتوظيفها في النص الشعري قد جاء متوافقاً مع تجربة درويش الذاتية، حيث إن كلا الشاعرين يعاني ألماً نفسياً حاداً؛ فأبو فراس الحمداني يتعرض لمصائب الدهر، ويقضي شطراً من عمره في الأسر، ودرويش يعاني

أيضاً حالة الألم المسيطرة على نفسيته، بسبب بقائه أسيراً في المعتقل بعيداً عن الأهل والأحباب، كما أن كليهما قد توجه بالخطاب إلى أمه دون سواها؛ ليبثها لوعته وشكواه ووجده، فهي أقرب الناس إلى قلبه.

وعلى الرغم من هذا التقاطع والتشابه بين تجربة الشاعرين إزاء أمه، فإن درويش حاول أن يفلت من تأثير مقطوعة أبي فراس الحمداني عليه، فلم يبق سابحاً في أجوائها، وإنما أضفي عليها من تجربتهِ الخاصة ما جعلها تفترق عنها في بعض أبعادها، ذلك أن صورة الأم عند الحمداني لا تعدو كونها الأم الجزوع، كثيرة الشكوى والنواح لفراق ولدها، في حين أن درويش في روميته أعطي"الأم" بعداً جديداً يتمثل في قوة شخصيتها، ومواظبتها على زيارة ابنها في "خميس الزيارات"، وتحملها مشاق الزيارة، التي بالتجمل والصبر، إلى جانب رفضها إذلال السجان المحتل وإهانته، وإعلانها نقمتها عليه.

وصفوة القول، فإن قصائد درويش التي توجه فيها إلى أمه مناجياً ومحاوراً تمتلك سمات محددة، تساعد على معرفة أسرار تجربة درويش الإبداعية والتي منها:

برزت صفة الأمومة بصورة لافتة في القصائد التى توجه بها الشاعر إلى أمه، فهي لذلك تعد شكلاً من أشكال أدب الأمومة، ولوناً من ألوانه من وجهة النظر الفكرية والفنية، فصوّر بصدق وأمانة طبيعة علاقته بأمه في مرحلة الطفولة التى تقوم على عاطفة الأمومة الصادقة المتدفقة، وعلى الحب والحنان والشوق، وقد حمل الشاعر/ الطفل أيضاً لأمه أسمى معاني الوفاء إلى درجة التفاني، إذ كان ينزع إلى الاتحاد بأمه كي يتخلص من الغربة والضياع، ويتمتع بالأمن، والحماية والسعادة، بل إن صفة الأمومة تجاوزت عنده الأم الحقيقية، لتنسحب على الأرض التي جعل منها أماً تتمتع بكل صفات الأمومة.

لم يقف الشاعر فى رسمة للملامح الرئيسية للأم عند صورة الأم الحقيقية، بل امتدت صورتها واتسعت؛ لتشمل الأم الجمعية، والأم الأرض والوطن، والأم التراثية، وأحياناً تتداخل هذه الصور فيما بينها وتتلاحم في النص الشعري الواحد.

وحَّد الشاعر بين الأم والأرض فى علاقة حب صوفي، من خلال كون الأرض وطناً يناضل الشاعر فى سبيله، دون أن يفقد أمل الحلم بالانتصار، بالرغم من المجازر التى ترتكب بحق هذه الأرض وأبنائها.

طغت فى علاقة الابن بأمه صور الطفولة السعيدة، ومعاني العطف والمحبة والبنوة والشوق والحنين إلي الطفولة، وتجلت أيضاً صور المستقبل الذي يحمل الأمل بالعودة إلى حضن الأم / فلسطين.

– زاوج الشاعر بين صورة الأب والأم في حضورهما في نصوصه الشعرية، بحيث لم تطغ صورة أحدهما على الآخر، وإنما كانا حاضرين بشكل متوازٍ، وكان لكليهما حضوره المبكر والواضح في شعره، فقد جاءت صورتهما أحياناً في صور جزئية على شكل ومضات مبثوثة هنا وهناك في عدد من القصائد، تم تطورت بعد ذلك، فأخذت ترد في لوحات فنية متكاملة نابضة بالحياة، خصص لها الشاعر قصائد مستقلة، وأحياناً أخرى قد تجتمع الصورتان معاً في نص شعري واحد.

تمايزت صورة الأب عن صورة الأم، ففي حين بدت عاطفة الأبوة صادقة متوهجة في علاقة الابن بالأب من خلال الحوار العاطفي، والحنان الأبوي، فإن ذلك التوهج العاطفي الحزين قد يضعف فى علاقة الأم بالابن، بل يكاد أن يتلاشى أحياناً.

الحواشي والتعليقات:

[1]) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً، الريس للكتب والنشر، لندن، ط1/ 1995 ، ص: 9.

[2]) النابلسي، شاكر: مجنون التراب دراسة في شعر وفكر محمود درويش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط 1 /1987 . ص:176 – 190 .

[3]) درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، ط14/ 1994 ، مج 1، ص: 72 ، 73.

[4]) الديك، نادي ساري: الطبيعة في شعر محمود درويش، مجلة آفاق، رام الله، ع 6،7، سنة 200 ، ص: 62،63.

5) درويش، محمود: لهم الليل والنهار لي، مجلة الآداب، بيروت، ع. 4/ 1970 ، ص 5 ، 6 .

6) نجم، مفيد: تناص التجربة مع ذاتها، قراءة في مستويات التناص الداخلي عند درويش"، الموقف الأدبي. www.awu_dam.org

[7]) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً، ص100، 101 .

8) سورة النور : الآية 35 .

[9]) درويش، محمود: ديوان محمود درويش، مج 1، ص:27.

10) النابلسي، شاكر، مرجع سابق ص: 642

[11]) درويش، محمود: ديوان محمود درويش،مج 1، ص:138.

[12]) السابق: مج 1، ص: 138.

13) السابق: مج 1، ص140.

[14]) السابق: مج 2، ص: 390، 391 .

[15]) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً، ص: 21 ، 22.

[16]) السابق، مج 1، ص: 36 ، 37.

[17]) الزغول، سلطان: تمثيلات الأب في قصيدة محمود درويشwww.addustour.com

[18]) درويش، محمود: ديوان محمود درويش، مج 1، ص: 197.

[19]) الصكر، حاتم: مداخل مقترحة لقراءة شعر محمود درويش، مجلة الشعر، القاهرة ،ع. 131 ، 2008 م.

[20]) درويش، محمود: ديوان محمود درويش، مج 1، ص: 197.

[21]) السابق، مج 1، ص:198 .

[22]) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً، ص: 32 ، 33.

[23]) محجز، خضر: محمود درويش في أَبدُ الصُبَّار لن يموت البيت، pulpit.alwatanvoice.com .

[24]) الأسطة، عادل، إشكالية الشاعر والسياسي في الأدب الفلسطيني محمود درويش نموذجاً، *www.najah.edu/*.

[25]) الجشي، رائد أنيس: قراءة في تجليات العولمة لدى محمود درويش، www.arab-ewriters.com

[26]) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً، ص:34.

[27]) السابق، ص: 35.

[28]) السابق، ص: 30.

[29]) درويش، محمود: ديوان محمود درويش: مج 1، ص196، 197 .

30) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً: ص:41.

31) درويش، محمود: ديوان محمود درويش: مج 2، ص: 359.

[32]) الزغول، سلطان: تمثيلات الأب في قصيدة محمود درويش.

33) انظر: إنجيل متى، الإصحاح السادس والعشرين(الإنجيل، كتاب الحياة، دار الثقافة، القاهرة، ط1 / 1984 ص: 43).

34) درويش، محمود: ديوان محمود درويش، مج 2، ص: 360.

35) درويش، محمود: ديوان محمود درويش: مج 2، ص: 76 ،77.

[36]) الجُلجُلة: هو الجبل الذي حمل السيد المسيح . عليه السلام . صليبه إلى قمته، والذي يعتقد المسيحيون أن السيد

المسيح صلب ومات فيه(إنجيل يوحنا19 : 17، 20 – 40).

37) زايد، علي عشري: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط1 / 1978.ص: 108

[38]) درويش، محمود: ديوان محمود درويش، مج 2، ص: 73.

[39]) السابق : مج 2، ص: 76.

[40]) السابق : مج 1، ص: 139.

41) انظر: تقسيم حسين حمزة صورة الأم في شعر محمود درويش .*www.bettna.com*

42) بيضون، عباس:" التراجيديا الفلسطينية ستجد تعبيرها الأرقى"، حوار مع درويش أجراه عباس بيضون، مجلة مشارف، ع.3، حيفا، 1995، ص 72.

43) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً، ص: 77.

44) السابق: ص: 78.

[45]) أبو حميدة، صلاح: صورة المرأة في شعر محمود درويش، ttp://pulpit.alwatanvoice.com.

[46]) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً، ص: 79 .

[47]) درويش، محمود، يوميات الحزن العادي، بيروت: دار العودة، ط3 / 1981، ص: 45 .

[48]) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً، ص:80 ،81 .

[49]) الشيخ، خليل: السيرة في إطار الشعر قراءة في "لماذا تركت الحصان وحيدا www.nizwa.com؟

[50]) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً، ص: 81 .

[51]) السابق ص: 30 ، 31 .

[52]) بيضون، عباس: التراجيديا الفلسطينية ستجد تعبيرها الأرقى، ص 70.

[53]) درويش، محمود: ديوان محمود درويش،مج 1، ص 107 ، 108.

[54])السابق: مج 1ص 21.

[55]) السابق: مج 2 ص 337.

[56]) شاهين، محمود: الأم عند الفنانين التشكيليين/www.3andyou.com

[57]) درويش، محمود: ديوان محمود درويش، مج 2 ص 352

[58]) أبو حميدة، محمد صلاح: الخطاب الشعري عند محمود درويش، دراسة أسلوبية، مطبعة مقداد، غزة، ط1/ 2000، ص 69.

[59])درويش، محمود: ديوان محمود درويش، مج 1، ص 93.

[60]) السابق: مج 1، 93 ، 94 .

61) السابق: مج 1 ص 94

62) حمزة، حسين: القصيدة أم / مقاربة بنائية دلالية لقصيدة "إلى أمي" للشاعر محمود درويش . www.aleftoday.info

[63]) بدوي، عبده: الغربة المكانية في الشعر العربي، مجلة عالم الفكر م. 15 ، ع.1 / 1984، ص16.

64) درويش، محمود: ديوان محمود درويش، مج 1، ص: 38.

65) السابق: مج 1 ص 574– 579 .

66) أبو مراد، فتحي: الرمز الفني في شعر محمود درويش، أطروحة ماجستير(غير منشورة)، جامعة اليرموك، د.ت، ص29.

[67]) درويش، محمود: ديوان عصافير بلا أجنحة، دار العودة بيروت، 1996 ص: 58 .

68) ناظم، حسن: البنى الأسلوبية (دراسة في أنشودة المطر للسياب)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1 / 2002 ، ص 182.

69) درويش، محمود: ديوان محمود درويش، مج 1، ص: 440.

70) ثابت، عبلة سلمان، البنيات التركيبية في الشعر الفلسطيني المعاصر، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة عين شمس، 2009 ، ص: 267.

[71]) درويش، محمود: ديوان محمود درويش: مج 1ص: 92 .

[72]) سحر، سامي: التناص الديني في شعر محمود درويش، من كتاب" محمود درويش، المختلف الحقيقي، دراسات وشهادات"، دار الشروق، عمان، ط1 / 1999 ص: 102 .

[73]) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً، ص:79 ، 80 .

[74]) الشيخ، خليل: السيرة في إطار الشعر قراءة في "لماذا تركت الحصان وحيدا".

[75]) درويش، محمود: ديوان محمود درويش، مج 1ص:78، 79.

76) الحمداني، أبو فراس، ديوان أبي فراس الحمداني، شرح خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3/ د. ت، ص. 161.

77) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً، ص:103، 104 .

[78] الخلايلة، محمد خليل: مراوغة اللغة.(قراءة في نماذج من ديوان "لماذا تركت الحصان وحيداً" لمحمود درويش)،

مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة عدن، مج. 7، ع. 13 يناير – أبريل 2004 .ص 33.

المصادر والمراجع:

1) أبو حميدة، محمد صلاح: الخطاب الشعري عند محمود درويش، دراسة أسلوبية، مطبعة مقداد، غزة، ط1/ 2000.

2) ـــ: صورة المرأة في شعر محمود درويش، ttp://pulpit.alwatanvoice.com.

3) أبو مراد، فتحي: الرمز الفني في شعر محمود درويش، أطروحة ماجستير(غير منشورة)، جامعة اليرموك، د.ت.

4) الأسطة، عادل، إشكالية الشاعر والسياسي في الأدب الفلسطيني محمود درويش نموذجاً، *www.najah.edu*

5) إمام، عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم، مكتبة مدبولي بالقاهرة، مج3/ (د. ت).

6) الإنجيل، كتاب الحياة، دار الثقافة، القاهرة، ط1 / 1984 .

7) بدوي، عبده: الغربة المكانية في الشعر العربي، مجلة عالم الفكر مج. 15 ، ع.1 / 1984.

8) بيضون، عباس:" التراجيديا الفلسطينية ستجد تعبيرها الأرقى"، حوار عباس بيضون، مجلة مشارف، ع.3، حيفا، 1995.

9) الجشي، رائد أنيس: قراءة في تجليات العولمة لدى محمود درويش، www.arab-ewriters.com

10) الحمداني، أبو فراس، ديوان أبي فراس الحمداني، شرح خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3/ د. ت.

11) حمزة، حسين: مقاربة بنائية دلالية لقصيدة "إلى أمي" للشاعر محمود درويش www.aleftoday.info

12) ـ : صورة الأمّ في شعر محمود درويش .*www.bettna.com*

13) الخلايلة، محمد خليل: مراوغة اللغة0 (قراءة في نماذج من ديوان "لماذا تركت الحصان وحيداً" لمحمود درويش)،

مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة عدن، مج. 7، ع. 13 يناير – أبريل 2004.

14) درويش، محمود: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً، الريس للكتب والنشر، لندن، ط1/ 1995 .

15) ــ: ديوان محمود درويش، دار العودة، بيروت، مج1، ط14/ 1994 .

16) ــ: ديوان محمود درويش، دار العودة، بيروت، مج2، ط1/ 1994.

17) ــ: لهم الليل والنهار لي، مجلة الآداب ، بيروت، ع. 4/ 1970.

18) ــ : يوميات الحزن العادي، بيروت: دار العودة، ط3 / 1981.

19) ــ: ديوان عصافير بلا أجنحة، دار العودة بيروت، 1996.

20) الديك، نادي ساري: الطبيعة في شعر محمود درويش، مجلة آفاق، رام الله، ع 6،7، سنة 200 ، ص: 62،63.

21) الزغول، سلطان: تمثيلات الأب في قصيدة محمود درويش/www.addustour.com

22) شاهين، محمود: الأم عند الفنانين التشكيليين.www.3andyou.com/

23) الشيخ، خليل: السيرة في إطار الشعر قراءة في "لماذا تركت الحصان وحيدا ؟ www.nizwa.com

24) الصكر، حاتم: مداخل مقترحة لقراءة شعر محمود درويش، مجلة الشعر، القاهرة ،ع. 131 ، 2008 م.

25) الكتاب المقدس(العهد القديم والعهد الجديد): دار الكتاب المقدس في العالم العربي، القاهرة، ط40 /1970 .

26) محجـــز، خضـــر: محمـــود درويـــش فـــي أَبـــدُ الصُـــبَّار لـــن يمـــوت البيـــت، pulpit.alwatanvoice.com .

27) النابلسي، شاكر: مجنون التراب دراسة في شعر وفكر محمود درويش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1 /1987 .

28) ناظم، حسن: البنى الأسلوبية (دراسة في أنشودة المطر للسياب)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1 / 2002.

29) نجم، مفيد: تناص التجربة مع ذاتها، قراءة في مستويات التناص الداخلي عند درويش"، الموقف الأدبي.
www.awu_dam.org